روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

زينب ملكة تدمر ١

طارق العسلي

دار الأندلس

زينب ملكة تدمر

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر



الجزء الأول

القسم الاول

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

١

تدمر

•

في طرف البادية التي تفصل الشام عن العراق تقع تدمر . وهي في شكلها المبسط . وموقعها في آخر ذلك السهل تحيط بها الجبال . كالجزيرة في البحر .

وتدمر من أقدم مدن الشرق . وقد كانت في الزمن القديم اعظم هذه المدن . واوسعها تجارة وابعدها نفوذاً .

تبعد عن دمشق مائة وخمسين ميلاً نحو الشمال الشرقي . ونحو مائة ميل عن حمص. واذا ركب العربي ناقته من شاطئ الفرات قاصداً تدمر . وصل اليها بعد خمسة ايام .

وكل ما وراء تدمر نحو الجنوب. سهول من الرمال قاحلة جرداء . لا نبات فيها ولا ماء . والجبال التي حولها تفصل بينها وبين البادية الاخرى وليست بالجبال التي تناطح السحاب .

وموقع المدينة ، في طرف بادية الشام من الشمال . جعل البادية مثلثاً . رأس هذا المثلث تدمر في الشمال . وساقاه . حدود العراق في الشرق ومشارف الشام في الغرب . وقاعدته شمالي جزيرة العرب .

واقرب الطرق بين العراق والشام البادية التي ذكرنا. غير ان الوحشة والجفاف اللذين يسودانها جعلا السفر فيها غاية في الصعوبة فكانت جماعات التجار وطوائف الجنود التي تترك الحيرة مثلاً قاصدة دمشق تتجه نحو الشمال الغربي على حدود الفرات حتى تصل الى تدمر. فتمكث فيها ما طاب لها الزمان ثم تسير جنوباً الى دمشق.

واذا خرجت من دمشق او من فلسطين . او من لبنان . قاصداً العراق

و بلاد الفرس او خليج العجم . فلا بد لك من المرور بتدمر حتى اصبحت سيدة المدن في ذلك الزمان . تنازعها هذه السيادة . مدينة قديمة جداً تقع في وادي موسى . هي مدينة « بترا » عاصمة دولة الانباط .

على ان « بترا » لم يبزغ فجر الجيل الثاني المسيح حتى سقطت الى الابد بسيف تراجان امبراطور الرومان. الذي حطم دولة الانباط ودك اسوار مدينتهم التي لم تزل انقاضها الى اليوم مفخرة من مفاخر الاثار .

فتحولت طرق التجارة الى تدمر . واخذت تصعد في سلم الرقي والغنى والعمران حتى بلغت قمة العظمة والمجد في الجيل الثالث للميلاد .

وللعلماء في اصل بنائها اراء واقوال. هذا يقول انها بنيت قبل التاريخ . والآخر يقول — وهذا هو الرأي الاصح — ان بانيها سليمان بن داود ، وهنالك نفر قليل يزعم ان الذي بناها هو سام بن نوح .

ولكل فريق حجته وبرهانه . غير ان الحجة التي يلجأ اليها حزب سليمان حجة قوية ثابتة لا ترد . وليس هنالك من مجال لغير هذا الرأي .

لقد ورد في التوراة . في سفر اخبار الايام الثاني « ومضى سليمان الى حماة وتغلّب عليها وبنى تدمر في البرية وجميع مدن الخزن التي بناها في حماة » وجاء في سعر الملوك الثالث « فبنى سليمان جازر .. وتدمر في ارض البرية »

ثم ظهر كتاب العاذيات اليهودية للمؤرخ الكبير يوسيفوس فجاء فيه . ان تدمر بناها سليمان .

والعرب انفسهم . وتدمر مدينة في باديتهم . اجل ان العرب انفسهم يزعمون ان الجن هي التي بنت تدمر لسليمان . وقد قال النابغة الذبياني شاعر النعمان بن المنذر بل شاعر العرب الأكبر ..

الا سليمان اذ قال الاله له   قم في البرية فاحددها عن الفند
وخبر الجن اني قد اذنت لهم   يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وقد قرأت هذين البيتين في رواية النعمان الثالث وهما من قصيدة استرضى

بها النابغة مولاه ملك العراق كما مرّ .

اما حجة الحزب الآخر . فقائمة على نظر استعماري سياسي اذ يقولون : ان تدمر لم تكن ضمن حدود مملكة سليمان . ووجودها في تلك البادية يقتل دولته . لأنه كان يهتم ليحيي فلسطين بتحويل تجارة الشرق الى البحر المتوسط بطريق البحر الأحمر . فبنى على شواطئه مرافئ لهذه الغاية . وكانت تجارة الشرق في ايامه تحمل بالبحور فلما ذهبت دولته تحولت التجارة الى البر فعاشت « بترا » مدينة الانباط ثم تدمر .

لكن هذا القول لا يقوم على اساس . فورود ذكر تدمر وذكر حماة في آية التوراة . معناه ان اعلام سليمان الملك كانت تخفق في سماء تلك البلاد . وانه كان يبسط نفوذه فوق اقاصي سوريا الشمالية حيث تنتهي حدود مملكته في مدينة تفساح القائمة على شاطئ الفرات .

اضف الى هذا ان الاثار التي اكتشفها المستشرقون في الجيلين السابع عشر والثامن عشر اثبتت لابناء القرن العشرين ان تدمر كانت « مدينة خزن » على الصورة التي وردت في التوراة كما قرأت .

اذن فسليمان بنى تدمر . وشيد فيها الابنية الجبارة والهياكل الضخمة ، وبتلك القوة والعظمة اللتين كانتا لسليمان . جعل تدمر تحفة من تحف الفن . القديم . ثم مر الزمان وتعاقبت السنون والدول ، وتلك الآثار الجبارة تهدم ثم تبنى ثم تصير انقاضاً . وهي في جميع العصور والادوار احدى مفاخر الشرق العربي .

ونسي التاريخ تدمر بعد موت سليمان . حتى انه مرت الف سنة وانت لا تجد لها في الكتب ذكراً . كأن عظمتها كانت معلقة على وجود بانيها الحكيم فلما مات دالت دولتها ونسيها المؤرخون حتى ظهرت قياصرة الرومان . ملوك الفتح والاستعمار في الغرب والشرق . فعادت الى الظهور بعد ذلك الاحتجاب الطويل .

فهيرودوت ابو التاريخ القديم لم يذكر تدمر . وفي فتوحات ذي القرنين مدوخ العالم لم يذكر لها اثراً . وسطرابون نفسه ذلك الجغرافي العظيم لم يكتب عنها كلمة وهو الخبير بجميع انحاء الشرق .

اجل ان ذا القرنين . عندما زحف الى العراق وعبر الفرات عند مدينة تفساح لم يتعرض لمدينة سليمان . وبومبيوس القائد الروماني الفاتح لم تطأ حوافر خيله مدينة « الحزن » في الصحراء .

اما الخطوط التي قرأوها على الآثار في الجيل التاسع عشر . فقد خبرت العالم ان نبوكدنصر الثاني مر بتدمر في اواخر الجيل السادس قبل المسيح ، في اثناء زحفه الى فلسطين ومصر . ففتحها عنوة . وقال بعضهم انه دك سورها وابنيتها : وهو قول مبالغ فيه . لان الآثار الباقية تنطق بان ذلك الغازي الشرقي هدم بعض تلك الابنية وابقى على البعض الآخر .

وليس هنالك من عجب اذا احتجبت تدمر بضعة اجيال . فهي كانت حتى اوائل النصرانية مدينة تجارية ليس غير ، الى ان تبدلت الحال فاصبحت مهداً لسياسة الشرق ، وامست قصورها مجالس شورى تبحث فيها مقدرات الشعوب :

سكان تدمر

كانت تدمر تغص بطوائف الارمن واليهود . والفرس والروم . وجماعات الناس على اختلاف المذاهب والاجناس . اما بيوتات الشرف فيها فاصحابها من العرب . اصلهم من البادية من بقايا العمالقة . كما هو اصل الانباط اصحاب بترا . على ما يذكر ابن خلدون .

ولقد كانت تدمر كما رأيت . سوقاً تجارية كبيرة . يقيم بها الناس للبيع والشراء : كما يفعلون اليوم في كل بلد تزهو تجارته ويكثر سكانه فما لبث العرب حتى غلبوا اهل المدن . وهم في خشونة البداوة . وعلو الهمة . وكبر النفس . لا يستطيع المدني ان يسابقهم في مجال الرفعة وبسط النفوذ .

ثم تربعوا في مناصب الدولة . وقادوا الجيوش الى مواقف الفخار وكانت الجرأة والاقدام يرفعانهم الى مراتب المجد : حتى اصبح العربي البدوي سيد تدمر . ثم صار ملكاً . .

وكانت اللغة الارامية . لغة بلاد الشام في ذلك الحين . فاتخذها ملوك تدمر لغة رسمية لدولتهم . يدونون بها اعمال الحكومة . ويكتبونها على تماثيلهم واثارهم .

كما فعل الانباط قبلهم في بترا . لكن اسماءهم وطبائعهم وجميع احوالهم تثبت عروبتهم. وفي لغتهم الارامية صبغة عربية هي بقايا الاعراب في اواخر الكلمات .

زد على هذا . ان اهل تدمر يقسمون الى بطون وافخاذ وهذا تقسيم عربي وان كانت لغة دولتهم الرسمية هي الارامية . فلسانهم وجنسهم عربيان .

آثار تدمر

اما علماء الآثار . فقد وقفوا على انقاض تدمر وبقاياها . قبل ان يقفوا على اثار الانباط في بترا . فعلوا ذلك في الجيل الثامن عشر واشهر من زار تدمر ووصفها كلها وابنيتها وتماثيلها . الفيلسوف فولني الفرنسي في اواسط الجيل المذكور . ثم تبعه المستشرقون الكثيرون في الجيل نفسه والجيل الماضي. منهم العلامتان دي فوكيه ووادنكتن . ودسو وكلرمون غانو وشرودر وغيرهم فصوروا تلك البقايا والتماثيل ودرسوا احوالها وقرأوا خطوطها وهي كما سيمر . أجل ان الأيدي امتدت الى تدمر في الحرب العامة وقبلها فتغير الشكل الذي وصفوه . ولكن الانقاض الجبارة ما برحت تهزأ بايدي العابثين .

هيكل الشمس او هيكل بعل

مربع الشكل . طول كل ضلع من اضلاعه ٧٤٠ قدماً . وعلو السور الذي يحيط به سبعون قدماً. وفيه من الاعمدة الضخمة الباقية اكثر من مائة . بصفوف مستقيمة متقابلة على قمة كل عمود منها نقش يوناني . ويظن علماء الاثار أن هذه العمد كانت اكثر من اربعمائة. دائرة الواحد منها كدائرة الآخر .وطوله كطوله لا ينقص ولا يزيد.

الرواق الاعظم

اما الرواق الأعظم . فعجيبة من عجائب تدمر بل هو احدى عجائب البناء في هذا الشرق . يبدأ على بعد مئتي متر من الهيكل . وكان في الأصل يمتد على طول المدينة من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي . بشوارع ثلاثة واحد في الوسط

واثنان عن الجانبين. طول هذه الشوارع او هذا الرواق ثلاثة الآف وسبعمائة وخمسون قدماً . وعدد اعمدته سبعمائة وخمسون عموداً لا يزال قائماً منها مئة وخمسون. على ما نظن . اما ارتفاع الواحد منها . من كرسيه الى اعلاه . فسبع وخمسون قدماً.

المدافن

والمدافن مظهر من مظاهر الضخامة والفن. شكلها غريب يشبه شكل الابراج المستطيلة . وهي اكثر من مئة مدفن تختلف في هيئتها عن مدافن الملوك والاعيان الباقية في اثينا وروما ومصر وغيرها من البلاد .

علو المدفن ثمانون قدماً . وعرضه ثلاثون. وهو ذو طبقات اربع يدخل اليها من باب واحد في الطابق الأول . وحول تدمر آثار السور العظيم الذي كان يحيط بالمدينة ويقف في وجوه الفاتحين الغزاة من ملوك وقواد في الغرب والشرق .

اما الانقاض. فاساطين وحجارة ونقوش وقطع تماثيل يقوم بعضها فوق البعض الآخر . وكلها شواهد على ثورة الطبيعة . وعبث الفاتحين .

لغة الآثـــار

وعلى تلك الآثار نقوش كتابية هي من تنوعات القلم الارامي سموها القلم التدمري وجدوا مثالاً منها على تمثال زينب هذه ترجمته :

« تمثال سبتميا بنت زباي الجليلة والتقية الملكة. ان السبتماءين زبدا القائد الاعظم وزباي قائد تدمر الفخيم نصباه لها في شهر آب سنة ٢٧١ للميلاد

واشهر العلماء الذين اشتغلوا بقراءة اثار تدمر . وحلوا رموزها واستخرجوا اسرارها . الكونت ديفوجيه . وهو يقسم تلك النقوش الكتابية الى اربعة انواع . نقوش بنائية على قواعد الاعمدة والتماثيل . ونقوش « قبرية » على المدافن ونقوش دينية كالأدعية والصلوات . ونقوش سياسية . واقدم كتابة عثروا عليها حتى الآن قرأوها منقوشة على قبر ويرجع تاريخها الى السنة السابعة قبل الميلاد .

وعلى اثنين من اعمدة الرواق الاعظم . قرأوا اسم زينب . والى جانبها تاريخ

يقابل سنة ٢٧١ للميلاد وهذا احدث تاريخ لهذه الدولة . وبين هذين التاريخين : نقوش كثيرة حفروا بجانب اصلها الارامي ترجمته اليونانية . وفيها طائفة من الكتابات السياسية والاجتماعية منها قرار من مجلس المدينة في ١٨ نيسان سنة ١٣٧ مسيحية يذكر الضرائب في تدمر وشروط استيفائها وجمعها وهو قرار طويل تزيد سطوره على المائة .

تمدن التدمريين

كانت التجارة في الزمن القديم بين الشرق والغرب تسير في طريقين الاول في البحر الأحمر الى مصر والاسكندرية . والآخر من خليج العجم فبادية الشام الى مصر . ومعنى ذلك ان تجارة البركانت قبل الميلاد وبعده بقليل . تسير بطريق بترا . فلما سقطت في اول القرن الثاني للمسيح كما تقدم تحولت الي تدمر . وبين تدمر والشام طرق مرصفة . ومحطات للراحة . وحصون وقلاع للحصار . جعلوها كلها وسائل دفاع عن القوافل . التي تحمل الذهب والصمغ وعود الند ولآلىء البحرين . والنيل والفولاذ والعاج والأبنوس من جزيرة العرب واقاصي الهند . فتنقل هذه البضائع الى مصر وروما والقسطنطينية وغيرها من المدن . ويعمد اهل الغرب وقياصرة الرومان وذوو اليسار الغربيون الى تزيين قصورهم بما يحمل اليهم من الشرق .

ويقول المركيز دي فوكيه على ما جاء في مجلة المشرق : ان القوافل التي كانت تحمل الى تدمر خيرات الشرق . كانت تستخدم من الدواب الأبل والحمير : فاذا وصل التجار الى حاضرة زينب. انزلوا جوالقهم واثقالهم ونقلوها الى العجلات يحملونها الى جميع جهات الدولة على الطرق المرصفة والشوارع الرومانية .

وليس من الغريب ان تزهر تدمر وتبلغ قمة الرقي والعمران . فقد كانت مرفأ عظيماً في بحر الصحراء ترسو في ساحلها تجارة الامم . ويدفع لخزانتها كل صاحب بضاعة ترد او تصدر . ضريبة معينة ذكرها في قراره مجلس الشيوخ . كما مر في السنة الاخيرة من ملك ادريان امبراطور الرومان الذي اتخذت تدمر اجلالاً لهاسماً

ثانياً – هو ادريانوبوليس . كما دعيت باسمه ايضاً مدينة ادرنه التي وضع بيده حجرها الأول .

والظاهر من الاثار الباقية . ان اهل تدمر كانوا طبقتين مثل سائر سكان المدن في تلك العصور . طبقة الخاصة وطبقة العامة . هذه تقيم في الاكواخ المظلمة الضيقة . والاخرى وهي صاحبة الثروة لا تسكن غير القصور . وبالرغم من تأثير التمدن الروماني في اهل تدمر . فحالهم الاجتماعية ما زالت شرقية .

٢

الرومان والشرق

•

روما الجبارة .. سيدة العالمين في ذلك الزمان . لم ترفع دولة في الشرق رأسها الا وبعثت اليها الجيش الفاتح يخفض ذلك الرأس . ولم يجلس ملك شرقي على عرش الا اذا خفقت اعلامها فوق عرشه.

دولة فتح وحرب لا تهدأ ولا تلين . تصعد في الجبال كما تجول في السهل ولا تجد جيشها في البحر حتى تراه في اقصى الصحراء .

وهي سلطانة البر كما كانت سلطانة البحار والويل للبلد الشرقي لا يبسط فوقه ذلك النسر الروماني جناحيه .

لقد قلنا في روايتنا الأولى . الحارث الاكبر . ان الغرب والشرق كانا يتنازعان النفوذ . الفرس والرومان اعظم الدول في ذلك الزمان . لا تمد احداهما يدها في اقليم حتى تشهر الاخرى في وجهها السيف واذا تلاحم الجيشان انقسمت دويلات

الشرق واماراته حزبين . هذا يضرب بسيف الفرس . والآخر يمشي في صفوف الرومان . ومنذ وجد الشرق واهله يتقسمون ...

في السنة السادسة والثلاثين قبل المسيح . زحف مرقس انطونيوس القائد الروماني الى بلاد الفرس فدارت عليه الدوائر . فانثنى يريد الشام راجعاً الى رومة . فاعجبته تدمر . فارسل الى اهلها يقول انه قصد مدينتهم لتستريح فيها جنوده . لكن القائد الروماني كان يضمر الشر . وهو يريد ان يطلق جنوده على تدمر فتكون المدينة لهم غنيمة باردة .

غير ان التدمريين لم يصدقوا . فنقلوا المال والعيال وعبروا الفرات فلحق بهم حتى دركهم . وهناك وراء الفرات . غلب اهل تدمر جيش الروم . وعاد الفاتح الكبير يتعثر باذيال فشله وخيبته .

ومنذ ذلك الحين . طمع الرومان بتدمر . واخذوا يعدون العدة للاستيلاء عليها . واهل المدينة يحافظون على الاستقلال ويدافعون عن الحرية . حتى انتصرت القوة على الضعف . واستسلمت المدينة التجارية للفاتح الظافر . في اواسط الجيل الأول للميلاد .

على ان الحرب بين الفرس والرومان لم تخمد نارها . بل اصبحت في صدر النصرانية حرب فناء واستمرت بعد ذلك بضعة اجيال . تجر خلفها للشعبين الغربي والشرقي ؛ الويل والدمار .

فمشت تدمر بخطى واسعة الى ذروة العظمة والغنى . لموقعها بين المملكتين ولمرور القياصرة بها في اثناء تلك الحروب . حتى صارت سيدة الشرق الروماني واثرى اهلها ووفر مالهم . والقياصرة يغدقون عليهم النعم والاحسان . وتلك سياسة روما المستعمرة . تلجأ الى استرضاء الشعب بالمال بعد ان تخضعه بقوة السيف .

ولماذا لا يبذل القيصر ماله لاعيان التدمريين وسادتهم وهم الذين يمشون امام جيشه ليقاتلوا عدوه . ولولا سيوف التدمريين لكان الفشل نصيبه في حروب الفرس ؟

اجل . ان تدمر كانت تعين الرومان . وعلى رأس الجيش التدمري رجال بأس وحرب . ينتمون الى اسرة وطنية لامعة في تدمر . كان لها الشأن الاكبر في تاريخ

المدينة . هي اسرة السميدع .

هكذا نشأت العلاقات بين اهل تدمر وبين قياصرة روما . لعب السيف دوره اولاً . ثم تنحى تاركاً الأمر للسياسة والمال. فانفتحت في وجه المدينةابواب الثروة . وتكدس المال في خزائنها يحمل على ظهور الابل واكتاف الرجال .

ثم اخذ النظام الروماني يسود المدينة . على ذلك القياس الذي تمشى عليه الروم في الاقاليم الخاضعة لهم . حتى ادخلها القيصر ادريان سنة ١٣٠ للمسيح في حمايته . ونظم شؤونها ووضع ضرائبها سنة ١٣٧ كما قرأت . وكانت حكومتها ترجع الى مجلس شيوخ عليه رئيس .

على ان الكلمة النافذة في تدمر لم تكن للروم . بل لذلك الامير الوطني صاحب القوافل او رئيس الخفر الذي تسير القوافل في ظل سلطانه . فهو صاحب القول الأخير في تدمر يفعل ما يشاء كالملك المستبد المستأثر لا تراجعه الرعية في أمر .

وليس في ذلك موضع للعجب . فرئيس القوافل هو رئيس الجيش . يجند من يشاء من الرجال ويقودهم في الصحراء ليرد غارة السلابين والقبائل النهابة في البادية الواسعة الممتدة كما تمتد البحار .

هذه نظرتنا في تاريخ تدمر . وهي كما ترى نظرة مختصرة جداً . جعلناها مقدمة لما سيجيئ زيادة في البيان . ولكي يتخذها القارئ اساساً لما سيقرأ من الفصول .

٣

أذينة الاول

•

بنو السميدع : اسرة تنتمي الى عمالقة العراق الذين هجروا ضفاف الفرات وتفرقوا قبل النصرانية قبائل وبطوناً . في جزيرة العرب ومشارف الشام .

كانوا اولاً يرتزقون بنقل التجارة في البادية ثم جعلوا تدمر موطناً لهم يهجرونه في

بجارانهم وقوافلهم الى حين . ثم يعودون اليه .

فلما ثبتت اقدامهم في مدينة سليمان . بسم لهم الدهر . فكثر مالهم وامتد نفوذهم. واصبحوا بعد قليل. مرجعاً لاهل تدمر .يرجعون اليه في ايام المحن والشدائد

واذينة منهم . وهو ابن خيران بن وهبلات بن نصور . الذين ورد ذكرهم في كتابات المدينة .

وكان نصور . اول رجل من بني السميدع ساعد الرومان على الفرس . فقربوه ورفعوا شأنه . ثم قام بعده ولده وهبلات فأخلص الخدمة للفاتحين ناهجاً في ذلك منهاج ابيه . وهكذا فعل ابنه خيران بعد موته .

فوثقت المصلحة عرى الصحبة والولاء . بين آل السميدع وبين الرومان. حتى ان القيصر سبتيميوس ساويروس . عندما زحف ليحارب الفرس في اول الجيل الثالث .كان خيران « والد اذينة » احد قواد جيشه . وعندما انتهت الحرب منحه القيصر لقب « سبتيميوس » وهو من اكبر القاب الشرف عند الرومان . واصبحت تدمر بفضل القيصر المشار اليه. مستعمرة رومانية لها حقوق المستعمرات الايطالية العليا .

لكن اذينة الاول ابن خيران لم يكن مثل اسلافه . بل نشأ حراً كبير النفس لا يخضع لنظام الرومان ولا يعترف بسلطانهم .

وكان كثير المطامع . يطمح ببصره الى شيء لم يجرؤ احد قبله في تدمر على الافتكار فيه . انه كان يريد ان يضع على رأسه تاج ملك ضخم واسع الاطراف. ونفسه الكبيرة لا تطيق ان ترى الفاتح الروماني يسوس بلاده ولو رفعها الى الجوزاء .

واذينة . من اولئك الرجال البسلاء الذين لا تقف بهم جرأتهم عند حد، لكنه اذا اضطر لجأ الى الحيلة والدهاء يتخذها وسيلة للحصول على غايته .

فأخذ من وراء الستار . يبذل المال للعرب الذين حوله . ومعظمهم من قضاعة . وينفخ في صدورهم روح الاستقلال . حتى اصبح جيشه السري اكثر عدداً من حامية الروم . لهذا الجيش ولرئيسه الشجاع غرض واحد هو خلع نير الفاتح الاجنبي . والقضاء على سلطته ونفوذه في تدمر .

وكان القدر يساعد اذينة على نيل غرضه . فان اردشير بن ساسان ظهر في بلاد الفرس . واباد دولة بني ارشك ملوك فارس . وتربع في عرشهم سنة ٢٢٦ . فاهتز العرش الروماني لظهور هذا البطل الفارسي . واخذت روما تعقد المجالس. للنظر في وسائل الدفاع والوقوف في وجهه . قبل ان يستفحل الأمر . فبادر القيصر اسكندر ساويروس الى محاربته . ومر بتدمر يزور تلك المدينة العظيمة التي تتمتع بنعمة الاستقلال . فاستقبله فيها «زباي» ابو زينب قائد الجيش التدمرية وكان على دعوة اذينة . واظهر له خضوع الجيش واستسلامه لارادته . فسر لمظاهر الولاء والاخلاص تظهرها تدمر . ومنح آل السميدع . في ذلك الحين. مرتبة الرئاسة. فصار اذينة الشجاع الثائرة نفسه على روما . رئيساً لمجلس الشيوخ في المدينة. سنة ٢٢٩ .

وانت تعلم . ان الناس في كل زمان مع الظافر ... فحنى جميع من في تدمر رؤوسهم لابن خيران . والتف حوله الانصار والرجال يفدونه بمهجهم وعقيدته التي لا تتزعزع تنمو وتكبر في صدره . وهو يعالج امره بالصبر ويغتنم الفرص ليقفز الى العرش الذي يبنيه .

ولماذا لا يبني اذينة عرشاً في الشرق ؟؟ وهو يرى الشرقيين قد تربعوا قبله في عرش القياصرة نفسه ؟؟. اجل . ان سبتيميوس ساويروس. واسكندر ساويروس. وفيلبوس العربي هم شرقيون . وقد قفزوا الى عرش روما في ذلك الجيل واواخر الجيل الذي قبله. واذينة يرى كل ذلك ونفسه تجيش في صدره ويضطرب شعوره لذكره..

واي شيء يمنعه من انشاء دولة مستقلة تبسط نفوذها فوق البادية وفوق الجزيرة ثم تتسع وتمتد حتى تضم اليها الشرق الروماني كله ، والعرش الاكبر نهب مقسم يثب اليه كل من يحسن الوثوب من قواد الرومان ؟؟! .

فنهض . في ليلة من ليالي الخريف . والعزيمة الثابتة تملأ صدره وجمع في قاعة الرئاسة قواد جيشه ورجال مشورته من العرب. ووقف بينهم خطيباً هادئ الصوت ثابت الجنان قائلاً : انا اذينة بن خيران رئيس مجلس الشيوخ في تدمر انادي بنفسي ملكاً !! فماذا تقولون ؟. فتسابق الزعماء الى المناداة : يعيش ملك تدمر ..

وهكذا . في ساعة من ساعات الليل اصبح اذينة صاحب عرش . ولم يبزغ

الفجر حتى اعترف به الجند الوطني والشعب . وجلس على عرشه الجديد الذي وضع دعائمه بيديه. دون ان تسفك حوله نقطة واحدة من الدماء ... وكان ذلك في اواسط الجيل الثالث .

ولأذينة ولدان . اكبرهما يدعى خيران . والاصغر يدعى اذينة .ولهذا الولد الثاني اخلاق كاخلاق ابيه . ونفس كنفسه . وصفات الرجال الافراد كصفاته . كأنه مطبوع بطابع ذلك الوالد العظيم الذي ادهش تدمر باجترائه على الرومان .

فعمد الملك الجديد الى إدارة شؤون الدولة. بدهاء وحزم وسرعة . مفوضاً مقاليد الامور الى انصاره . حافظاً لنفسه حق الاشراف في الدولة على كل شيء [illegible]

الملك ! الأمبراطور ! ملك الملوك ! !

- ١٦ -

نام سابور ليلته والهم يملأ قلبه ، والكبرياء تذوب في صدره . . كان يفكر في تسليم المدائن الى عدوه العربي الذي استخف به أولاً وبهداياه ، وكاد يقذف برسله الى الفرات . . لكن الفاتح الفارسي لا يستسلم بدون قيد وبدون شرط . فقد وضع للتسليم شروطاً كان واثقاً الوثوق كله بأن أذينة لا يرفضها لأنها من مصلحته ، منها أنه يضع يده في يد القنصل ويتعاونان على طرد الرومان واقتسام الشرق ! وأن حران ونصيبين أحداهما تكون له والأخرى لأذينة ، الأولى تدخل في حدود الفرس والثانية تبقى للقطر العربي ! وإن الفريقين ـ الفرس والعرب ـ إذا مشيا الى حرب مشيا بقيادة الاثنين حتى إذا ظفرا كانت حصة الواحد مثل حصة الآخر ! إلى آخر ما هنالك من شروط لولا كبرياء سابور في بادىء الأمر لوافقه أذينة أو في بعضها وسار الأثنان في طريق المجد الذي أعده قنصل تدمر ، وبات يفكر فيمن يحمل هذه الشروط غداً حتى اهتدى إلى أحد المرازبة فاستسلم إلى الكرى والهم يعكر عليه صفاء نومه كما مر ، لكنه عندما أصبح رأى العجب ، ناوله حاجبه كتاباً جاء فيه : لقد كتب لنا أن نعود عن المدائن قبل أن تسقط في يدنا ولكن سنزور بلاد الفرس بعد حين . . وفي الكتاب توقيع أذينة . فقال لحاجبه : ويلك من اعطاك هذا الكتاب ؟

قال : دفعه إلي أحد حراس الأبواب يا مولاي ، فجعل قلبه يرقص في صدره من الفرح . ثم قال : يا غلام أدع المرازبة والقواد . فقال : إنهم جميعهم بالباب ينتظرون الأذن في الدول .

قال : ليدخلوا فنحن لا نصدق ما قرأناه .

فلما دخلوا فاجأهم بقوله : ما هي حكاية الجيش العربي ؟
فقالوا : أصبحنا ونحن نرى صفوف هذا الجيش في آخر الأفق .

قال : وهل عرف أحدكم سبب تراجعه عن المدائن ؟ فساد السكوت لأنهم لم يكونوا يعلمون ذلك السبب . .

قال : إن لهذا الرجوع واحداً من سببين ، أما أن قائداً عربياً خرج على أذينة أما أن حادثا عظيماً نزل بدولة الرومان . على كل حال سنعرف ذلك بعد قليل ، فاصدروا الأوامر ليخرج الناس من المدائن فقد انتهى أمر الحصار الآن .

هكذا خرج الفرس من عاصمة ملوكهم يتنفسون الصعداء ، وهم لا يعلمون أي إله أنزل عليهم رحتمه في ذلك الليل .

***

كان وصول القنصل إلى مدينته وصول ظافر ، لكنه لم يشأ أن يستريح قبل أن يستوي في عرشه ويضع التاج على رأسه وقد ردد التدمريون فيما بينهم اسم الملك لأنهم عرفوا أن القنصل سيصير ملكاً ، ولو شاء أذينة أن يحمل صولجان الملك من أول يوم لاعترف به الجيش والشعب . غير أنه أراد أن يشاور نائب القيصر كما يشاور السياسي المسلطعلى كل شيء صديقاً له لا حول له ولا طول . أجل ! إنه لم يكن ينتظر رأيه ولكنه ما أحب أن يحذو حذو الخوارج في ما فعلوه من ادعائهم الملك . إن كل رجل في تدمر كان يحدث رفيقه بقضية التاج . حتى أن نساء المدينة كن يتناقلن خبره ، ليتهيأ للأمر كل تدمري قبل أن تصدر الأرادة فيه . . . وكهيلة ومعن كانا يتحدثان كثيراً عن ذلك الأمر ، لأن ساعة هنائهما هي ساعة هناء وراحة القنصل العظيم الذي سيمسي صاحب العرش ، وأنت ترى أن في نشر الخبر شيئاً من الشورى والاستفتاء ، وقد عبر الشعب عن رغبته في جعل سيده ملكاً ، بمظاهر الفرح والاستبشار يبديها في ساعات ليله ونهاره . . يفعل ذلك على رغم تلك السعايات التي قام بها المتآمرون من وراء الستار . . وعلى كثرة هؤلاء المتآمرين لم يجسر أحدهم على أن يتظاهر بعدم الرضى أو يحتج على ذلك الفعل ، إلاّ معني فهو وحده بينهم صاحب الجرأة في القول إذا أوعز إليه اسماعيل

وهذا لم يشأ أن يقول كلمته في قضية التاج ، أجل ، أن العيون كانت تنطق بما في الصدور من حسد وعاطفة شر . لكن ذلك وحده لا يكفي ولا يدعى احتجاجاً ، لم يعد رسول أذينة من فلسطين إلاّ بعد أن عين موعد الاحتفال بتتويج الملك . . وكان نائب القيصر قد اضطر إلى ترك بيروت والالتجاء إلى الأراضي المقدسة منذ استولى مكرنيس الخائن على سوريا وآسيا الصغرى ومصر . وللرسول عذره في ذلك الأبطاء . فإن جيوش الخائن كانت تملأ الشواطىء والجبال وكلما مر بها عابر سبيل عمدت الى تفتيشه ، والقبض عليه إذا لم يكن على دعوة مكرنيس ، فلما دفع جواب النائب إلى مولاه ، عرف أذينة ـ قبل أن يقرأه ـ أن ذلك الرجل جبان لا يستطيع لخوفه أن يبدي رأياً فيما يعني عرش تدمر .

فقال للرسول : ألم يقل لك الرجل شيئاً ؟

قال : بلى يا مولاي أنه لا يريد أن يكون له رأي فيما كتبت اليه .

قال : ونحن بغنى عن رأيه . ماذا قال لك بعد ذلك ؟

قال : سألني عن اليوم الذي تزحف فيه إلى اخضاع القيصر الجديد .

قال : يظهر أن مكرنيس أوجد الرعب في قلوب خصومه الرومان .

قال : نعم يا مولاي ونائب القيصر يخافه حتى أنه يخشى أن يعجز القنصل عن الفتك به .

قال : ألم تسمع في فلسطين أين يقيم هذا القيصر ؟

قال : عرفت من أحد الجنود أنه كان في دمشق ثم انتقل منها إلى حمص .

قال : هذا خبر قد سمعناه من قبل وقد بعثنا الرسل إلى أبعد من حمص ينقلون إلينا أخباره .

قال : وسمعت خبراً غير هذا يا مولاي .

قال : ما هو ؟

قال : إن الباغي في البلاد التي تخضع له يضطهد المسيحيين ويسومهم الذل .

قال : وهذا أيضاً قد سمعناه حتى أن بعض مسيحيي الشام لجأو الى تدمر فراراً من ظلمه . . أعندك شيء آخر ؟

ـ لا يا مولاي .

فقال : انصرف الآن وقل للقواد الواقفين في الرواق أن يدخلوا ، فخرج الرسول وجعل أذينة يحدق إلى ذلك التاج البراق الذي أعدوه له ووضعوه على أسطوانة من رخام في تلك القاعة العظيمة التي بنوا فيها عرشاً وستصبح قاعة العرش . . أجل . إن تلك القاعة التي هي مجلس القنصل الخاص والتي تعد الثانية في ذلك القصر بعد قاعة مجلس الشيوخ . سيجعلونها بعد قليل أعظم وأفخم قاعات ذلك القصر العجيب .

***

في قاعة مجلس الشيوخ التي تغص بالتدمريين ، دوى صوت زبدا قائد الجيش العام يقول : باسم الجيش الذي أرأسه أنادي بمولاي أذينة قائد المشرق ملكاً . .

وقام كبير الشيوخ فقال : وأنا باسم الشعب اعترف بهذا الملك . . وعندئذ ارتفعت سيوف القواد ورؤساء العشائر وهم يقولون : نقسم يمين الأخلاص لجلالة ملكنا أذينة الثاني . . وعلت أصوات الهتاف والدعاء ، ساعة واحدة هي أعظم ساعة في تاريخ المدينة ، انتقلت فيها تدمر من حال الى حال . . كانت في نظر الشريعة الرومانية مستعمرة تخضع في الظاهر لعاهل الرومان ، وكان رئيسها عاملاً من عمال القيصر ولو مد رواق ملكه فوق أقطار المشرق ، فصارت دولة مستقلة لها ملكها وما يتبع الملكية من مناعة وشأن، واتخذت لها من تلك الساعة نظاماً خاصاً وموقفاً دولياً أسوة بجميع الدول! إن أذينة عندما استوى في عرشه ووضع التاج على رأسه ، كتب في تاريخ الأجيال سطراً خالداً من سطور العظمة التي لا يزول لها أثر . وجعل لغيره من الملوك مثلاً يتخذونه شعاراً لتلك العبقرية والبطولة اللتين تنطبق عليهما الصدور . لم يكن واثقاً بتلك المظاهر الكاذبة تظهر بها الملوك أمام الناس . ولم تكن نفسه الكبيرة لتهتم إلاّ لوضع الشيء في موضعه . حتى أن تلك الحفلة العظيمة التي جعل نفسه فيها ملكاً لم يكن ليرغب فيها إلاّ لأنها كانت أمنية شعبه . فلما اسدل الستار عن الفصل الآخر من فصول تلك الرواية ، وضج الشعب بالدعاء لمليكه ، أحس أن التاج يتعب رأسه فرفعه بيديه ووضعه أمام هيروديس قائلاً له والناس يسمعون : خذ عني هذا التاج يا

يني فإذا كنت قد خلقت لأكون ملكاً فأنا لم أخلق لألبس تاجاً . . ثم قال لزينب قد تصلح التيجان للنساء ولا تصلح للرجال فالبسي تاجك يا سيدتي الملكة وأجلسي في العرش أما نحن فسنذهب إلى الميادين . ثم خرج من المجلس الى الرواق الأعظم ووراءه القواد . والشعب يهتف له فنظر إلى معني بين يديه فقال : أرأيت كيف صار القنصل ملكاً بدون إذن الرومان ؟ فاصفرت شفتا الفتى وأجابه قائلاً : إن القنصل يستطيع أن يفعل ما يشاء ولكني أخشى ان يتغير هؤلاء الرومان عليك . .

قال : إنهم يخشون أن نتغير نحن عليهم ، أتراهم يرفضون أن يكون غيرهم صاحب عرش ؟

قال : من يعلم ماذا يخلق الزمان :

فاضطرب جسم حطان لهذه العبارة القصيرة التي تدل على باطن العدو الصغير .

أما أذينة فقال : حسبنا أننا صرنا ملوكاً وليخلق هذا الزمان ما يشاء ، ثم تم طوافه في ذلك الرواق . ولما عاد إلى القصر كانت وفود المهنئين من الرومان بانتظاره تحمل له أكاليل الغار . . فكاد معني يسقط على الأرض لما رآه لا سيما عندما شاهد القواد يحيون عمه كما يحيون القيصر ويحنون له رؤوسهم كما يحنونها له ، وكان أذينة يصافحهم ويقول : خير لي ولكم أن تحيوني كقائد وليس كملك . . وأخذ يسألهم عن مكرينس ويظهر لهم اهتمامه لأمره والخروج لقتاله وهم مثل جميع الناس لا يعلمون عنه أكثر مما يعلمه العرب . .

وبينما هم يتحدثون أقبل الحاجب فقال : بالباب رسول الملك الى حمص .

فاشرق جبين أذينة وأذن له في الدخول ثم قال : أرأيت الأمبراطور الكذاب ؟

قال : لا يا مولاي فقد غادر المدينة قبل أن أصل اليها .

قال : وأين كان قبل ذلك ؟

قال : في دمشق .

ـ : إذن كان ما بلغنا عنه صحيحاً . إلى أين سافر اليوم ؟
ـ إلى تراقية مع ثلاث فرق من جنوده .
ـ : يظهر أنه ذهب إليها فاتحاً .
ـ : لا يا مولاي لكن بلغه أن الأمبراطور غاليانوس فيها فأعد عدته وخرج لقتاله لأنه يكره أن يكون في البلاد امبراطور غيره ! .
قال : أواثق أنت بهذا ؟
قال : نعم يا مولاي خبرني به عربي .
قال : ومن في حمص من رجاله ؟
قال : ترك فيها ولده كياتوس يعاونه كاليستوس أو باليستا نائبه وقد رأيت الأثنين .
قال : أين كان ذلك ؟
ـ : في حمص نفسها وقد خرجا في عربتهما أمام وفود السوريين .
قال : صفهما لنا .
قال : إن الفتى كياتوس أقرب إلى النساء منه إلى الرجال ، أما الآخر فرجل حديدي يشبه النمر . .
قال : وكم في حمص من الرجال ؟
قال : فرقة واحدة من أبناء سوريا يا مولاي ، فهز الملك رأسه وقال للرومان يظهر أن صاحبنا لا يحسب لأحد حساباً . والتفت إلى قائد حراسه وقال له : أترافقنا إلى حمص يا معن ؟
فابتسم الفتى قائلاً : حمص بلدي وفيها نشأت ولا أريد إلاّ أن تكون في طاعة الملك .
قال : إن وجودك فيها يساعدنا على فتحها .
قال : إذا كانت المدائن لم تثبت أمام الملك فحمص ستلقي سلاحها على قدميه .
قال : استعدوا أيها القواد فسنعود إلى الميدان وسنجعل سوريا أقلياً تابعاً لتدمر إذا رضي السوريون .

فقال أحد القواد : أتسأل سوريا أن تنضم إليك برضى أهلها ؟

قال : أجل إن الرضى خير من الأكراه وسترون أعيان السوريين يعرضون علينا الطاعة بعد أيام . .

* * *

عندما وصل ملك تدمر إلى سهول حمص مع جنوده . بلغه أن القيصر الكذاب قتل في تراقية ، وأن جيشه السوري تراجع الى بلاده وهو يلعن ذلك القتيل وكان موته حياة للالوف من الناس . فإن المسيحيين تنفسوا الصعداء بعد موته . وخرج السوريون على ولده صاحب حمص وخلعوه ، ثم أقبلوا على الملك التدمري - كما تنبأ - يظهرون له الخضوع ، فلجأ المخلوع الى حصون المدينة مع نائب أبيه . وامتنعا وراء أسوارها وهما يعلمان أن أذينة لا يتراجع عنها حتى تستسلم اليه ، أجل إن الملك الذي دك أسوار حران ونصيبين لا يترك أسوار حمص حتى يقوض أركانها ويدكها إلى الحضيض ، وكان كاليستوس يرى التسليم أولى من الامتناع . ولولا رفقه لفتح أبواب المدينة ووضع سيفه على قدمي الملك

كانت حاشية أذينة ووجوه قواده في بلاطه الملوكي عندما أقبل رسول غاليانوس يحمل ذلك اللقب الجديد وقد اعتزم ملك تدمر أن يستريح في عاصمته بضعة أشهر ريثما يستعيد جنده الظافر تلك القوى التي تبذل في الميادين .

وقد كثر حوله المتملقون يظهرون له الخضوع والأخلاص كما كثر حول معني المتامرون ، من كل طائفة وكل جنس حتى أنه لو أظهر العداء لعمه لكان أنصاره الوفاً يضربون أمامه بالسيف . ومعظمهم بل جميعهم من الحساد طلاب النفوذ وطلاب المال كما مر وقد وقف أذينة حاجزاً بينهم وبين ما يطلبون . أضف إليهم أولئك الأفراد الذين انضموا إلى جيش تدمر عن خوف من الملك الجديد لا عن رغبة في خدمته . وحطان يقول لأذينة كلما خلا به :

أضرب يا مولاي قبل أن يسبقوك في الضرب . . أما الملك فلم يكن يبالي بقوله ولم يشأ أن يضرب ضربته إلاّ بعد أن يلمس بيده خيانة ابن أخيه كما قرأت . .

وكان هيروديس من الجانب الآخر يحاول أن يثبت لأبيه إخلاص ذلك الفتى الذي نشأ وكبر في حضنه . وهكذا كان القدر يملي مشيئته على أذينة وولده ويمهد السبل أمام معني . . وإذا ذكر معن أو كهيلة الزواج ، قام حطان يدافع عن رأيه الأول ثم اضطر إلى القول أنه لا يسلم بهذا الزواج قبل أن ينتهي أمر المتامرين .

ولما أكرهته كهيلة على التصريح قال : أخشى أن يرسل اليكما معني خنجراً مسموماً يطعنكما به بعد أن تصبحا زوجين ، فاتركا الزواج ريثما ينظر الملك في أمر العدو المخيف النازل في قصره . . إن حطان كان يرى كل شيء أسود في حياة الملك وحياة من حوله . وذلك لأن معني حي . . ومعني هذا أن الخطر لا يزول إلاّ إذا زال ذلك الفتى من الوجود . وكثيراً ما كان اليهودي يحدث نفسه بقتل تلك الأفعى السامة التي تضمر الحقد لكل مخلص للملك . ولكنه كان يخاف غضب هذا الملك وغضب هيروديس ، بل كان يخشى أن يقول التدمريون أن معني لم يقتل إلاّ برضى أذينة . . وفي ذلك من العيب ما فيه . . وكان يعزي نفسه ،

بأنه سيسهر على حياة أذينة وحياة ولده فيمنع خنجر القاتل من الوصول الى الأثنين .

تلك هي حالة البلاط التدمري ، أما زبدا وزباي والمقربون من القواد ، فإنهم وإن كانوا يثقون بحطان إلاّ أنهم كانوا يرون استخفاف الملك بما يسمعه فيستخفون بدورهم بذلك الخطر الذي ذكر لهم وهم لا يبصرون مظهراً واحداً من مظاهره .

***

لقد أذن لك الملك في الدخول أيها السوري ، فدخل الرسول وجثا على ركبتيه أمام أذينة وزينب ورفع صوته قائلاً : أجثوا أمام امبراطور الشرق وأسأل الالهة أن تصون دولته ، ومد يده بالكتاب . فاهتز القواد جميعهم ـ المخلصون والخونة ـ للفظة امبراطور . . أما أذينة وزينب فكأنهما لم يسمعا ما قاله ذلك السوري . لقد لمع الجلال في عيونهما وملأت وجهيهما الرصانة والعز أجل . إن تينك الشخصيتين الكبيرتين لا تستهويهما الألقاب ولا تبطرها النعم .

فقال أذينة : أأنت من جنود القيصر أيها الرسول ؟

قال : كنت من جنوده أما الآن فقد أصبحت من جنود مولاي الأمبراطور لأني سوري وقد أمرني القيصر بالبقاء في هذه البلاد . .

قال : وليس لكتابه جواب ؟

قال : هكذا قال لي عندما أمرني بالمجيء .

قال : أقرأ يا حطان .

فجعل حطان يقرأ الكتاب وشفتاه لا تنفرجان كأنه يقرأ أمراً بالاعدام !

وقد ظهر البشر على وجوه القواد وكان اسماعيل ومعني يبتسمان ، ثم تناول الملك قطع النقود وأخذ يتفرس في صورته وصور المرازبة الأسرى المقيدين وراءها ولم تتغير ملامح وجهه . . وهكذا فعلت زينب ، ثم انتقلت قطعة النقود إلى أيدي الخاصة حتى أخذها معني وقال : مر الصناع بأن يضربوا مثلها يا مولاي .

قال : سنفعل . .

قال : وليحفروا على عمد الهيكل صورة هذا الكتاب لتعرف الأجيال المقبلة أنكِ في سنة ٢٦٤ أصبحت امبراطوراً . .
قال : يظهر أن ولدنا معني يقرأ أفكارنا . . سنفعل هذا أيضاً يا بني .

فابتسم الفتى ابتسامة قصيرة كما يبتسم الذئب الجائع لفريسته . . واستطاع حطان أن يفهم معنى تلك الابتسامة الهائلة التي تخفي وراءها الموت . وبعد أن أطرق الملك قليلاً قال : لقد عرف القيصر كيف يجعل ملك تدمر مخلصاً له . إن مصلحة الرومان هي مصلحة تدمر نفسها والشرق والغرب دولة واحدة يسودها ملكان . . ثم قال : ليعلم الشرقيون في كل قطر . إن ولدنا هيروديس هو شريك لنا في الملك ، كل ما يستطيع الملك أن يفعله ، يفعله هيروديس مثله دون أن يراجعه أحد . له أن يأمر وعلى الشرقيين أن يطيعوا والويل لمن يجرؤ على العصيان . .

فقال معني هازئاً : لا يستوي ملكان في عرش واحد أندعوه مبراطوراً يا مولاي .
قال : أدعه ما شئت ولكن أحذر أن تخرج عن طاعته . .

فحنى الفتى رأسه ولم يقل كلمة .
فقال زبدا : أما وقد أصبحت امبراطوراً يا مولاي ، فأنا أقترح أن تلحق باسمك لقباً آخر يدرك الشرقيون معناه . .
فأجابه قائلاً : أتريد أن يدعونا الناس ملك الملوك كما يدعو سابور نفسه ؟
قال : نعم فسابور ليس أعظم منك في المقام .
قال : ليكن ذلك ولو كثرت الالقاب . .

واقبل القواد يهنئون هيروديس بثقة الملك به وفي مقدمتهم معني وإسماعيل .

***

يونان في تدمر ـ الفرس والبرابرة ـ بين هرقل والمدائن ـ حادث يضطرب له الشرق .

ـ ١٧ ـ

نحن اليوم في مطلع عام ٢٦٥ للمسيح .

وقد نهض أذينة بأمور دولته نهوضاً طيباً يريد أن يجعل الشرق في عالي اتب الرقي والعمران . . وكان الوثنيون كما تقدم ـ ومذهبهم مذهب الدولة ومانية في ذلك الحين ـ يضطهدون النصارى في معظم الأقطار . . ويعرضون م في شؤون دينهم . . حتى اشتد النزاع بين الفريقين ، في قيصريه وحمص نطاكية ودمشق وانضم النصارى إلى الملك العربي امبراطور الشرقيين ، فدعا يه زعماء الوثنيين ، وقال لهم :

ـ الشعب الشرقي الذي يخضع لنا حر في اعتناق المذهب الذي يراه ، فإذا رض أحدكم لنصراني في أمر مذهبه صلبناه على باب مدينته ولو كان أبن عم قيصر . . فانطفأت عندئذ نار ذلك الاضطهاد ، وجعل كل فريق حراً في دينه . أباح للنصارى بناء معابدهم في المدن التي يكثر فيها الوثنيون ، على أن هؤلاء لزعماء وفي ظليعتهم زعماء حمص ، اضمروا البغض للملك واستطاعوا أن نضموا على مهل وبطبيعة الحادثات ، إلى ذلك الفريق الثائر في الخفاء على أذينة أنصاره ، والذي يرأسه معني . . ! وهكذا كانت دعوة أبن خيران تنتشر وتمتد في مالك عمه وبين وجوه القوم . واسماعيل واشياعه ينتظرون الساعة التي يتهيأ لهم يها قتل أذينة الظالم فيستوي أبن أخيه في عرشه .

وأنت ترى ، إن أذينة لم يبق له طمع بالمعالي ، فهو ملك وامبراطور .

ويحمل من الألقاب ما يحمله القيصر نفسه ، وكلمته في دولة الشرق أبعد أثراً من كلمة غاليانوس في القسم الغربي ، لكنه أضحى ذا طمع بالفتوح . فإذا كانت نفسه قد شبعت من الكرامة والعز ، فهي لم تشبع من التوسع والمجد ، واطماعه من هذه الناحية لم يكن لها حد ، كان عليه أن يعيد إلى المدن التي هجرها أهلها بهجة ماضيها ونضارة أرضها لتعيش رعاياه وهو ملك ، في سعة لم تكن لها وهو قنصل ، أجل ، إن تلك المدن والقرى المنتشرة على شاطىء الفرات ، تركها أصحابها فراراً من مصائب الحرب وفظائع الفتح إلى المدن الأمنة في قلب البلاد وعلى شواطىء بحر الرومان . على أمل أن يعودوا إليها يوم يعود الأمن ويسود السلام ، كذلك كان عليه أن يطهر بلاده من أوباش الرومان والأرمن والسوريين الذين انتهت مدة خدمتهم في الجيش الروماني . فانضمت طوائفهم بعضها إلى البعض الآخر وأخذت برئاسة زعماء لها تهاجم الأقاليم الهادئة فتقتل وتسلب وتخرب وتسبي والناس لا يستطيعون أن يتصدوا لها لشراسة رجالها وكثرتهم .

وكان كاليستوس الذي قتله أذينة في حمص زعيمها الأكبر ، فلما قتل ضعفت شوكة هؤلاء الأخلاط فرحلوا إلى آسيا الصغرى وجعلوا منازلهم في أعالي الجبال حتى استعادوا قواهم فولوا عليهم رجلاً أسمه تريبليانوس وبايعوه بالامارة فضرب نقوداً بأسمه وشهر الحرب على الأمبراطور الجديد .

وهنالك أيضاً علة العلل . . هنالك سابور الفارسي الذي لا يهدأ لأذينة بال إلاّ إذا قضى على دولته .

إن امبراطور الشرق لا يستريح بل دولة الرومان نفسها لا تعرف الراحة إلاّ إذا تحطمت دولة فارس وضم أذينة أقاليمها الواسعة الى أقاليم دولته الجديدة التي وضع حجرها مغموساً بدماء رجاله ، وبدون ذلك لا يستقيم لأذينة أمر الشرق فالنزاع الدائم بينه وبين سابور يزعزع عرشه . وقد يخسر نصف جيشه في الميادين قبل أن يستقل بالشرق كله . فإذا زحف إلى المدائن بجميع القوى التي تستظل بظل العلم التدمري استطاع أن يظفر بعدوه فيخلو له الجو . .

ذلك كان واجب الملك العربي يقضيه فيثبت تحته العرش . فبدأ أولاً بنشر

السلام في الأقاليم ليعود إليها أصحابها وكان يقول لقواده: لا نريد أن نحكم أرضاً لا شعب فيها..

بعث رسله يقولون للناس: ليرجع كل مهاجر إلى وطنه فالملك يضمن راحته وحياته. فعاد القوم إلى البلاد التي هجروا وهم يعلمون أنهم في أمان. واستعادت ارضهم ذلك الخصب الذي كان لها وأمطرتهم خيرات وسعة عيش. وكادت تدمر تضيق على رحبها بالغرباء. أولئك التجار والصناع والعلماء الذين تركوا آسيا الصغرى وبلاد اليونان لاجئين إلى عاصمة أذينة مدينة الصحراء. إذ تدمر كانت في الواقع مرفأ لتجارة الشرق، وقد بعد ذكر ملكها حتى فزع اليه الفارون من الظلم على أثر ظهور الخوارج الطامعين بعرش غاليانوس، ونشوب الحرب في مختلف الأقاليم. وبين أولئك اللاجئين، نابغة ذلك الزمان لونجينوس وسيد العلماء في ذلك الجيل. قدم من أثينة ليقيم في البلد الآمن، واستعطف أذينة قبل قدومه بخطبة هي فصيح القول والبيان، وقد لعب هذا الأديب الكبير في دولة الشرق، دوراً عظيماً وذهب له فيها صيت وذكر وكان من أقرب المقربين كما سيجيء، ثم وجه الملك قائداً من قواده مصري الأصل يدعى كوسيسوليوس، لينازل ذلك المتمرد تريبليانوس الذي شهر عليه الحرب.

فاصطدم الجيشان في الشمال اصطداماً عنيفاً أثر كل فريق منهما فيه الموت. فانتصر القائد التدمري، وقتل خصمه، وفر الأوباش إلى جبالهم يحتمون بها زمناً من الجيش التدمري ثم يعودون إلى تمردهم وفسادهم بعد حين. وهكذا فعلوا. ولكي يمحو الملك أثرهم من دولته أراد أن يبعث جميع قواده كل واحد منهم إلى أقليم ليخضعوا المتمردين.

على أن زبدا وزباي لم يوافقاه في الرأي. بل أرادا أن يهاجما المدائن - إذ كان لا بد من ذلك - ثم ينصرفان إلى نشر الأمن في البلاد، واجمعوا على هذا، فأخذوا يحشدون جموعهم ويتأهبون لحرب سابور.

***

وهتفت الأقطار للامبراطور الجديد كما هتفت تدمر . فامتد ذلك الهتاف في الفضاء حتى سمعه سابور في قصره . . . إن لفظة امبراطور تختص بالقيصر وحده فكيف يطيق هذا القيصر أن يكون له شريك في لقبه وفي ملكه ! إن هذا لا تفعله الملوك ولا يصدقه مثل سابور ، وهب أن غاليانوس أراد أن يشرف عامله العربي فدعاه امبراطوراً ، فمن منحه ذلك اللقب الآخر ـ ملك الملوك ـ الذي هو لملوك الفرس وحدهم لا يشاركهم فيه أحد ؟ ! ذلك أيضاً فوق طبع سابور ! ولكن لا يجوز للظافر أن يفعل كل شيء . . ألم يظفر به على الفرات وأمام المدائن ولولا ظهور الخوارج في الدولة لدك أسوار عاصمته ؟ ! إذن ، فمن حق أذينة أن يكون ملكاً ثم يرتقي فيصير امبراطوراً ثم يصعد إلى القمة فيصبح ملك الملوك !

ذلك ما كان يفكر فيه سابور عندما بلغه خبر أذينة ، على أنه ذكر في ذلك الحين هزيمته وقام في ذهنه أن امبراطور الشرق سيزحف إلى بلاده مرة ثالثة وقد يحالفه النصر فيسقط إلى الأبد .

فبدأ يحشد جيشه أمام عاصمته ويتهيأ للقاء عدوه ، جاعلاً أبواب المدائن وراء ظهره كما فعل من قبل . ولم يكن يجرؤ على التوغل في البلاد كما كانت عادته . فقد كان الخوف ملء قلبه وهو يخشى أن يفاجئه في ساعة لا يعرفها هو ولا يعرفها الجواسيس . وكانت نصيبين وحران قد أصبحتا بفضل أذينة من أمنع مدن الدولة . فيهما الحامية القوية ترد غارات الفرس وتقوم في وجه كل عدو . ولم يخطىء سابور في حسابه . فإن الجيش التدمري أطل على سهول الفرس بعد أن أعد عدته ونظم صفوفه ، ثم دارت رحى القتال . فكان أذينة هو الفائز وتراجع سابور إلى مدينته وهو يكاد يموت من قهره .

وأعاد التاريخ نفسه ، فإن الفرس احتموا وراء أسوارهم وقام التدمريون بالحصار يرسلون إلى العاصمة قذائف المنجنيق والعرادات من الحجارة الضخمة حتى تزعزع السور ، وعند ذلك الحين ، مد القدر يده كما مدها في المرة السابقة فإن رسل آسيا الصغرى أقبلوا من الشمال ينقلون أخبار هجوم البرابرة على تلك الأقاليم . فتحير أذينة في أمره ، أيترك المدائن وهو يوشك أن يفتحها وينصرف إلى الدفاع عن بلاده ، أم يبعث إلى الشمال بعض جيشه ويحاصر هو بالبعض الآخر

ـتى يستسلم الفرس ؟ إن صيانة البلاد هي في نظره قبل الفتح ، والملك الذي لا
ـبح أرضاً حتى يخسر أرضاً ليس بالملك الذي يحسن حفظ ملكه لا سيا وأقاليم
شمال في آسيا هي زهرة الأقاليم .

« وهنا يسكت المؤرخون فلا يقولون أفتح أذينة المدائن أم أنصرف قبل
ـتح . إلاّ واحداً هو المؤرخ القسطنطيني لسنسال فقد ذكر في كتابه أنه فتحها
ـد أن فر منها سابور» .

وكما تراجع التدمريون في مرتهم الأولى تراجعوا هذه المرة أيضاً وأفاق
ـبور فلم ير أثراً لأذينة ولجيشه .
كان البرابرة قد رسوا في هرقلية على شاطىء البحر الأسود إلى غلاطية
ـادوقية ينشر الخراب وراءها ظله المخيف، وكان غاليانوس وقتئذ في جوار
ـسطنطينية يعد أسطوله لينازل تلك الطوائف في البحر ويقذف بهم إلى الأعماق،
ـ وصل أذينة وجيشه ، فر البرابرة من وجهه إلى مرفأ سفنهم فركبوها يريدون
ـدهم . غير أن قيصر طاردهم بأسطوله فأفناهم حتى أنه لم يبق منهم غير
ـليل ، فأسف أذينة لهذا الفرار وندم على تركه المدائن ثم قال لقواده : لقد كتب
ـن لا نعرف الراحة فسنعود إلى بلاد الفرس .

***

لقد أتت الساعة يا اسماعيل . . أنتظر حتى يعود أذينة إلى تدمر فنضربه في
ـره ؟ فأجابه اسماعيل قائلاً : أصبر يا مولاي حتى يتفرق أصحابه . .

فقال معني : ومن يستطيع أن يبعد هؤلاء الأصحاب ؟

قال : أذينة نفسه فسيرسلهم إلى الشواطىء والجبال ليبسطوا نفوذه ويرفعوا
ـم السلام فوق ربوع دولته . ألا تذكر أنه قال لهم ذلك قبل أن يغادر تدمر .

فابتسم وقال : أجل لقد وعدهم بهذا وقد نسيت . . أتراه يبعثهم في هذه
ـمة قبل أن يهاجم الأعجام ؟

قال : هذا ما أراه إلاّ إذا لم يوافقوه في الرأي .

قال : أخشى أن نعود إلى تدمر وهم مجتمعون .

قال : أما أنا فلست قليل الجلد لأتعجل في أمري . خير لك يا مولاي أن تصبر الزمان كله حتى يبعلم قواعده عنه فتستولي على التاج وأنت مطمئن من أن تتعجل فتضرب ضربة يحملونك بعدها على رؤوس الحراب .

قال : إذن فلا بد من الصبر . .

قال : نعم وقد يتم لك غداً ذلك الأمر الذي تنتظره منذ جيل ، وكان الجيش يبعد عن هرقلية بضع مراحل . وهو راجع إلى حمص على أمل الزحف إلى المدائن . ففكر أذينة في أمر أولئك المتمردين الأوباش المقيمين في الجبال يبعثون الذعر الى قلوب رعيته ويسلبون الناس أشياءهم من حين إلى حين ، واعتزم أرسال قواده لأجل إخضاعهم قبل أن يجتاز الشاطىء ، فدعاهم في صباح يوم وقال لهم : أنترك هذه الأقاليم قبل أن يسودها الأمن ؟

فقام حطان فقال : على أي شيء عولت يا مولاي ؟

قال : على أرسال قوادنا مع فرقهم ينظمون شؤون البلاد وينظرون في أمور الناس .

قال : ومولانا الأمبراطور ؟ . .

قال : أما نحن فنسبقهم إلى حمص ونمكث فيها حتى يعودوا .

قال : ومن يبقى معك يا مولاي ؟ . .

فضحك أذينة وقال : إن صاحبنا حطان يخاف أن يبقى الملك وحده فتأكله السباع . . ! سيبقى مع الملك هيروديس وبعض الحراس . .

قال : وحطان يا مولاي فأنا لا أحب الحرب ولا أطيق أن أبتعد عن الملك . .

قال : أفعل ما تشاء .

قال : إن بين الحراس من يعرف هذه الجبال كما أعرفها أنا .

فعرف الملك عنئذ أن الرجل يلح في الطلب من خوفه عليه ، فأبت عليه عزة نفسه أن يظهر خوفاً ، فقال : لقد أمرناك بالمسير فاتبع معنا إلى حيث يرسله الملك .

فخفق قلب اليهودي وجعل يقول في نفسه : أرى الملك يدفع نفسه ويدفع ولده إلى الهاوية وهو لا يدري . ثم التفت فجأة إلى اسماعيل فراه هادئاً ، أما معني فكانت عيناه تبرقان ذلك البريق الوحشي . . فقال : لقد كبر معني وأضحى نابغة في فنون القتال أفلا تأمره بالذهاب مع الجيش ؟

قال : لقد شهدنا حربه في حصار المدائن فهو لا يصلح إلاّ للصيد . . إنه من أصدق الرماة في الجيش . .

قال : إذا كان هذا فليجرب سهامه في صدور الأعداء .

قال : نريد أن يحتفظ بهذه السهام لصدور الفرس . وضحك الملك لابن أخيه قائلاً : سنقضي بضعة أيام في الصيد يشاركنا فيه معني ، وأخذ يوزع قواده زبدا إلى الشمال ، وزباي إلى لجنوب ، ومعن بن حمدان في الشرق ، والقائد الآخر في الغرب حتى جعل لكل واحد منهم مهمة كأن قوة خفية كانت تدفعه إلى أبعادهم بمثل تلك السرعة وذلك الحزم ، وزبدا وزباي ومعن والقواد المصريون ساكتون لا يقولون كلمة كأن تلك القوة نفسها تملي عليهم ذلك السكوت الغريب . . !

حتى أن هيروديس لم يبد ولم يعد ، غير أن حطان كان ينطق بلسان الجميع . .

فقال : أيأذن لي مولاي الأمبراطور بكلمة أقولها ونحن منفردان ؟

قال : نأذن لك في هذا بعد غروب الشمس . . فاحمر وجه حطان لمظاهر استخفاف الملك ووقف بباب القبة ينظر إلى السماء يستوحيها القول ، وقد مرت سحابة سوداء أمام عينيه وملأ اليأس قلبه عند وثوقه بأن الملك ماض في ذلك الأمر حتى احتجبت الشمس عن العيون فاقبل على مولاه وهو لا يكفكف الدمع المتساقط على خديه . . فلما راه بدت علائم الاستخفاف من جديد على وجه الملك وقال له :

يا حطان ! أتخوف الملك أمام خاصته ووجوه قواده ؟ فمسح الأمين دموعه قائلاً : ما عرفت من قبل أن الملك الذي ساد الشرق بقوة سيفه يجد الخوف سبيلاً إلى فؤاده . ولكني أردت أن أقول لمولاي أنه لا يليق بهذا الملك أن يرجع إلى حمص يحيط به فريق من حرسه وجيشه بعيد عنه .

قال : وسيعود معنا بعض الرماة . . فتمتم حطان قائلاً : وهذا هو موضع الخوف . . فرفع الملك عندئذ صوته وقال : أرجع إلى صراحتك يا حطان وقل لنا لماذا تخاف ؟

قال : أتسألني عن هذا يا مولاي وأنت تبعد المخلصين وترافق الخونة المتامرين ؟ !

قال : وإذا فعلنا ؟

قال : أفعل ما تشاء يا مولاي ولكن لا تستخف بالأقدار . . ألا تعلم أن هؤلاء الخونة إذا رأوك منفرداً شهروا عليك السيف .

قال : لا نظنهم يجسرون على هذا . .

قال : بل يفعلون أعظم منه ولا يبالون . . إن أنصارهم كثيرون يا مولاي وجميعهم يلبسون ثوب الاخلاص وهم كالذئاب . .

فضحك أذينة عندئذ وقال : إذن أنت لا تعلم ماذا يريد الملك من انفراده ؟

فنظر إليه حطان مستفهماً وهو ساكت .

فقال : ألم نقل لك غير مرة أننا لا نمد الى المتأمرين يداً قبل أن تلمس هذه اليد خيانتهم ؟

قال : بلى .

قال : وأنت ترى أنهم يتظاهرون بالحب ويضمرون الشر فهم لا يقدمون على أمر إلاّ إذا بعد الملك عن أصحابه . .

قال : ولأجل هذا يهيء لهم الملك أسباب الجناية ؟ !

قال : أجل فسيبعد الملك أصحابه الأمناء وينفرد مع هيروديس لا يرافقهما قائد . لكي يقبض على تلك اليد الاثيمة التي تمتد اليه .

قال : إنها تمتد من وراء الستار يا مولاي . .

قال : والموت يكمن لها وراء الستار أيضاً . .

قال : لينصرف الجميع إلاّ حطان .

قــال : وتنصرف أنــت قبلهــم ولا خوف على الملك . يا غلام أدع هيروديس .

فدعاه الحاجب فأقبل . فقال له أذينة : إن حطان ينصح للملك بالرجوع عن رأيه فماذا ترى ؟

قال : وأي رأي يا مولاي ؟

قال : أي أن نعدل عن أرسال قوادنا الى الاقاليم .

قال : ولماذا ؟

قال : لأنه يرى في هذا التدبير خطراً على الملك وعلى هيروديس ! .

فأرسل الفتى ضحكة ملأت القبة وقال : ما برح حطان يحدثنا بالمؤامرات ويتهم ابن عمنا وهو لا يستطيع أن يثبت قوله ، أتظن يا حطان أن معني الرافل بحلل العظمة والعز في ظل الملك يخرج عن طاعة هذا الملك وهو عمه ؟ !

فقال حطان : ليس هنالك ظنون أيها الأمير . . إن حطان لا يبدي رأياً قبل أن يقوم في نفسه الوثوق بذلك الرأي من كل وجوهه . . إنك تحسب مظاهر ابن عمك إخلاصاً على العرش من فتاك المتمرغ في أحضان العز . . أجل إن المتامرين كثيرون لكنه هو زعيمهم وسيدهم الذي لا يطيق أن يرى تاج تدمر يغطي رأساً غير رأسه وأنصاره اليوم اكثر عدداً منهم بالامس فإذا أنس غفلة من الملك وثب عليه وثوب النمر وقام أشياعه من خلفه ينادون به ملكاً على الشرق . .

قال : وأين يقيم هؤلاء الأنصار ؟

قال : بين صفوف الرماة والفرسان وأبناء البادية حتى أن معن بن حمدان يقود بعض الخونة من الحراس وهو لا يدري .

فقال الملك : إذن فإذا بعثنا قوادنا ليحفظوا الأمن في الدولة فقد أبعدنا في الوقت نفسه صفوف المتأمرين على العرش .

قال : نعم يا مولاي لكن الخونة يملأون المدن والقرى وهم بين الشعب اكثر منهم بين فرق الجيش . فإذا أبعدت هؤلاء دعا معني أولئك في ظلام الليل وتهيأوا جميعهم لبذل النفوس في سبيله .

قال : إذا فعل ضربه الملك وضربهم مع الرجال الذين يرافقونه إلى حمص بحد السيف .

قال : أتظن يا مولاي أنهم يهاجمون الملك في وضح النهار ؟ !

فقال هيروديس : إن الغدر لا سبيل لهم إليه لأن أبـي في قبتـه أعـز من النجم .

قال : قد يفلت في الفضاء سهم من سهام الخونة فيصيب الملك . .

قال : ذلك وهم لا معنى لوجوده يا حطان وأنا أضمن معني . . !!

فاختلجت شفتا أذينة وقال : لا تضمنه يا هيروديس فنحن نعلم أنه خائن ولكن لا نخافه ونحب أن نقبض عليه وعلى أشياعه . أسمع يا حطان . نحـن راجعون إلى حمص ولنا فيها من أمراء دولتنا وعمالنا جيش يقوم مقام قوادنا الذين سنرسلهم إلى ساحات الشرف .

قال : ليصدر الملك أمره فأرجع معه إلى حمص . .

قال : لا يليق بالملك أن يرجع اليوم عن قول قاله أمس فاذهب مع الجيش وأعلم أننا لا ننسى لك هذا الأخلاص وستحرسنا الالهة . .

فدمعت عينا اليهـودي وقـال : نفسي تحدثنـي بأن أعصيك يا مولاي فلا أذهب .

قال : إنها لأمثولة في حسن الطاعة تلقيها على الجيش !! إنك إذا فعلت هذا أكرهت الملك على انزال العقاب بك . . فحنى حطان رأسه وهو يمسح دموعه ثم قال : ليس لي إلاّ أن أخضع لحكم القدر وإن جار . . ثم خرج من القبـة واليأس يملأ قلبه وجثتا أذينة وهيروديس ماثلتان أمام عينيه مضجرتين بالدماء . .

***

إن حطان مصيب فيما قال يا هيروديس .

قال : وأنا أعرف مثله أن في الجيش خونة يبغضون الملك ولكنني لا أصدق أن معني يوافقهم في هذا البغض .

قال : إذا شك الملك في أحد ففي هذا الفتى الذي ربيناه وأنت تنتصر له ،

لقد كان علينا أن نسمع لليهودي الأمين فنقبض على الأفعى الصغيرة السامة ونضعها في أحد السراديب في تدمر ثم نعمد إلى اسماعيل وأتباعه فنعذبهم ونضربهم بالسياط حتى يعترفوا ولكن ما فاتنا اليوم فلا يفوتنا غداً وقد نستدرك الأمر عند وصولنا إلى حمص .

قال : ماذا رأى الملك من خيانة معني ؟

قال : أمثلك يسأل الملك مثل هذا السؤال يا بني ؟ لقد كان الصلب على باب الهيكل أخف ما نعاقب به أبن عمك لو ظهرت خيانته ، ولكن نقرأ بغضه في عينيه ونرى على وجهه مظاهر الاستخفاف بالملك والاستهزاء برجاله . ألم يستخف بك حين قال لنا أمام أمراء الدولة تلك الكلمة التي تعد أهانة لأبن الملك ؟ !

قال : ما هي يا مولاي ؟

قال : ألم يستغرب أمر الملك بجعلك شريكاً له بالملك ؟ ! أفلم يقل بلهجته الجافة تلك العبارة التي يخيل الينا أننا نسمعها الآن « لا يستوي ملكان في عرش واحد» ثم سخر بك قائلاً « أندعو هيروديس امبراطوراً» ؟ !

قال : ذلك طيش الشباب يا مولاي . .

- بل ذلك بغض تأصل في قلبه وملك عليه كل عواطفه فلا تعتذر عنه ، ونحن إذا أبعدنا قوادنا فليس ليخمدوا فتنة الخوارج فحسب ، بل لنجعل للمتامرين سبيلاً إلى إظهار ما لم يظهروه من قبل . . إن ذلك اليهودي الذي يدعى حطان ليس من عامة الرجال يا هيروديس . بل هو شعلة حكمة وذكاء ارسلتها عناية الالهة الى تدمر كما ترى . ولولا عزة الملك لأمرنا ببقائه مع الملك ولما صدر لنا أمر إلاّ عن رأيه . .

لكن طهارة وجدان هيروديس لم تشأ أن تتهم معني . فسكت احتراماً لأبيه . وهو يجد الدفاع عن الفتى واجباً يمليه عليه أدبه وكبر نفسه . إذا وقف معني يوماً موقف المذنبين ، أما أبوه فكان يرى في تلك الساعة غير ما يراه ولده . إن قطع رأس الحية كان في نظره واجباً تمليه عليه مصلحة العرش . .

***

في صباح يوم من أيام الصيف ودع القواد ملكهم أذينة ومشت صفوفهم إلى اخضاع المتمردين ، وحطان ينظر إلى الوراء والدموع في عينيه . . غير أن القواد كانوا يسخرون منه إلاّ معنا فإن قلبه كان يضطرب كلما نظر إلى دموع حطان .

حتى إن أذينة نفسه عندما قبل اليهودي يده أحس بقشعريرة تمشت في جسده وكما أرسل أذينة جيشه إلى الاقاليم ، أرسل معني واسماعيل في ليل ذلك اليوم رسلهما إلى المدن والقرى يدعون الأتباع والأنصار الى الاجتماع في حمص لاستقبال امبراطور الشرقيين . . إن الملك الظافر الزاحف إلى المدائن ليستولي على عرش الفرس يجب أن يستقبله شعبه في حمص بأهازيج النصر أجل ، وعلى كل رجل يشهد حفلة الاستقبال ، أن يخفي خنجره تحت الثياب . . الخير والشر ! أو اللؤم والنبانةكانا يتنازعان النفوذ في ذلك الحين . أذينة يبعث أمناءه ليطهروا الدولة من الفساد وخصومه الذين يقودهم ابن أخيه ، يبعثون أمناءهم ليوغروا الصدور على الملك العظيم الذي شرف بلاده ، إن الفرق قليل وقليل جداً بين المهمتين . . أولئك كانوا يريدون أن يبنوا بناء عالياً يرفع رأسه إلى السماء يخلدون به ذكر الشرق ، وهؤلاء يريدون يريدون أن يقوضوا أركان البناء لتقوم مصلحتهم الخاصة على أنقاضه . . وقد شاءت الأقدار أن يستخف أذينة بأقوال المخلصين من رجاله ، فسلح بصبره وسكوته أيدي خصومه . ودفعهم بيده إلى ذلك التدمير وذلك ما كان يخشاه حطان . كان يرى أن سكوت أذينة مع ما فيه من مظاهر العدل والعز . هو ضعف لا يليق بالملوك وليس فيه شيء من حزم الحاكم المسلطعلى كل شيء . وكان يقول لمعن وهما سائران مع فرقة الحراس الى جبال أيزورية : ما رأيت ملكا يلامس سيف القاتل رأسه وهو يرى ذلك السيف ويبسم لصاحبه غير أذينة . . ! إن استهانته بالخطر ستقضي عليه وهذا ما كنتُ أقرأه على صفحة الفضاء فالويل لتدمّر إذا قتل الملك . . ويرتعش جسمه وجسم معن عند ذكر القتل . نعم إن معنا كان خائفاً لكنه لم يخطر بباله قط إن في تدمر واحداً يجسر على أن يمد يده بسوء إلى أذينة . ومع ذلك فلم يكن يعرف سبب خوفه .

فلما ردد حطان لفظة القتل اهتز على فرسه وجعل يحدق إليه . وحطان ذلك الداهية الحكيم يبكي ويقول : سنرجع إلى حمص فلا نجد ملكاً . .

فقال معن : لقد جاوزت الحد في خوفك يا حطان . فهز رأسه قائلاً :

لو كانت القضية قضية خوف وحده لهان الأمر ولكني أرى - كلما أطبقت جفني - شفار الخناجر تلمع تحت ثياب المتامرين . وأرى معني واسماعيل يأمران تلك الخناجر فتخرج من مخابئها تحمل لموت .

قال : إن الرجال الذين يحرسون الملك يمنعون خناجر الخونة من الوصول اليه . ومتى وصل إلى حمص أصبح أهلها جميعاً حراساً له . .

قال : إنك لا تكاد ترى في حمص رجلاً واحداً مخلصاً للملك . . كلهم خونة يريدون أن تكون لهم حمص وما يتبعها ملكاً خاصاً يتصرفون به كما يشاؤون ، وأرى أنهم من أعضاء تلك المؤامرة ومن أشد المخلصين لمعني .

قال : إذا كان هذا فخير لنا أن نعصي أمر الملك ونرجع إلى حمص متبعين أثاره في ظلام الليل .

قال : هذا ما يخطر لي أنا أما أنت فجندي لا يجوز له أن يعصي قائده فإذا فعلت كنت من الخوارج المتمردين على الملك .

قال : يجب أن يتمرد جميع القواد ويعودوا إلى حمص . .

قال : إن زبدا وزباي المطلعين على كل شيء ينظران إلى المؤامرة مستخفين بها واثقان بأن معني واسماعيل ومن شايعهما أحقر من أن يتصديا لأذينة .

قال : وهما يتهمان معني كما نتهمه نحن . .

قال : أجل ومعني في نظرهما فتى حسود تحتدم نار الحقد في صدره ولكنه لا يجسر على أن يمس الملك .

قال : وكانا يسهران على حياته ونحن ذاهبون إلى المدائن .

قال : كما كان يفعل هيروديس ، يحيطقبة أبيه بالحراس وهو يهزأ بالخطر . إني لأرى هذا الاستهزاء قاضياً على تدمر يا أبن حمدان . .

قال : إنكم مخطئون جميعاً فمثلي لا يؤثر الوهم فيه .

كان أذينة . إذا طالت أيام سفره يعمد إلى الصيد ، وهي عادة له لم يتركها في جميع أدوار حياته ، نشأ في البادية يصيد الأسود وأنواع السباع . وهو يجد في ذلك الصيد لذة لا يجدها إلا في الميادين . وكثيراً ما كان يصارع الأسد والنمر

بالسيف وينتهي الصراع بقتل خصمه بضربة يفلق فيها هامته . فلما انصرف قواده ، عمد إلى قوسه وسيفه يطوف في تلك الغابات باحثاً عن الضواري ، ومعه هيروديس ومعني وحاجبه البدوي وعشرون من حراسه يعين لهم موضعاً ينتظرونه فيه ، وكان السفر طويلاً وشاقاً وهو كلما مر ببلد نظر في شؤون ذلك البلد ثم توغل في الغاب . وهيروديس لا يفارق أباه ، كما أن معني لم يكن يطيق أن يفارق الأثنين . . وكما كان الأثنان يصيدان الوحش ويفوزان في الصراع كان هو يصيد مثلهما وينتهي أمره بالظفر لأن ساعده قد اشتد وهو أحذق الرماة في الجيش التدمري ، ومرت ثلاثة أشهر والقوم يصيدون والملك ينظر دائماً إلى معني بعين الحذر والفتى لا يقع في الشرك ، ولم يكن ذلك عن دهاء ، بل كان ينتظر الوصول إلى حمص ليقوم في مهمته الكبرى التي أعد لها العدة كما أشار عليه الداهية اسماعيل . وكلما فكر في تاج الشرق تثنى في مشيه وملأ الزهو نفسه حتى ليظهر البشر على وجهه بكل معناه . حتى قارب القوم بلاد العلويين اليوم . . والغابات في تلك الديار كانت تغطي الجبال وفيها جميع صنوف الوحش والطير فاستولى الزهو على معني ورقص قلبه في صدره لأن مدينة حمص لم تكن بعيدة عنه . وفي حمص . . ! أجل في حمص سيصير معني ملكاً . . !!

خمسة عشر يوماً تمر أو أقل ويلبس أبن خيران تاج عمه ثم ينصرف إلى تدمر فيبعد الملكة وأنجالها الى مكان قصي ، قد يقتل أولئك الاطفال واحداً واحداً لئلا يقوم منهم من يطمع بالعرش . وهبلات البكر، وخيران الولد الثاني، ويتم الله أصغر أخوته الذكور وبنات ثلاث منهن في حضن المرضع . أولئك كانوا أنجال عمه الملك . فأخذ الشقي يفكر في مصيرهم بعد قتل أذينة .ويختار لهم ـ إذا أذن لهم في الحياة ـ بلداً نائياً بعيداً يرسلهم إليه . . والدنيا كلها ، في ذلك الحين كانت أضيق من أن تسع معني . وأماله وأحلامه ! . . وقد بدأ يرى عمه أحقر من عبد هو سيده . . ! والأيام تمر وقد طابت الأقامة لأذينة في تلك الربوع وطاب له الصيد في غاباتها حتى كاد ينسى المؤامرة والمتامرين . ولم يكن يعلم أين يبيت . فإذا أدركه الظلام وهو في الغاب على قمة الجبل ضربوا له قبته تحت الأشجار . وإذا أقضت عليه شؤون صيده بات على الشاطىء أو في سهل لا شجرة فيه . ولو قيل له أن في غاب « كذا» صيدا لمشى في اليوم الثاني الى ذلك الغاب ولو كان يبعد

عشرين مرحلة عن المعسكر ، ففي إحدى الليالي قال له دليله : إن في موضع كذا كثيراً من الأنمار لو بعثت الجيش كله ليصيدها لفاتك منها العدد الكبير ، فقال له : نذهب غداً مع نصف الجيش فنقضي على هذه الوحوش التي تؤذي الناس كما يقضي قوادنا على زمر الأوباش الذين يزرعون الفساد . . ثم قال لاسماعيل لقد جاء دورك في الصيد يا صاحبنا فكن غداً مع الملك وأنظر إلى سهام معني تخترق صدور الضواري . .

فأجابه ذلك الخبيث قائلاً : اذهب لأكون دائماً في خدمة مولانا الملك .

قال : لا نحتاج في صيدنا إلاّ إلى من يحمل جعبة السهام وحاجبنا يفعل هذا . فإذا ذهبت فلكي تكون في خدمة معني . .

قال : ألا يجد أبن خيران ـ وهو أبن أخي الملك ـ من يخدمه غير مربيه ؟ . .

قال : لا يجد الفتى مع حاشية الملك لذة كالتي يجدها مع اسماعيل . . إنك أبوه وهو يحبك أكثر مما يحب الملك . . ماذا تقول يا معنيٌ ؟ .

فقال هيروديس : بل يحب الملك كما يحب نفسه . . فابتسم أذينة قائلاً : نسأل هذا فيجيبنا الآخر وأبن أخينا لا يقول كلمة . .

فقال معني : لقد سبقني هيروديس والجواب ما سمعت يا مولاي .

قال : إذن تحبنا كما قال أبن عمك . .

قال : أحب الملك كما يحبني هو . .

فقال أذينة في نفسه : صدق الفتى فهو لا يريد أن يكذب

ثم قال : غداً يشترك الحراس جميعهم في الصيد كما يشاركنا فيه اسماعيل ولو كان قائد الرماة هنا لأخذ منك يا معني أمثولة في الرمي . . قل للحراس يا هيروديس أن يعدوا سهامهم ويتهيأوا للذهاب معنا إلى ذلك الغاب فأعظم أيام الصيد هو يوم غد . .

فقال معني : أتستهزىء بي يا مولاي وأنا خير من رمى .

قال : ما خطر ببالنا أن نهزأ بك بل نحن يملكنا العجب كما نزعت عن

قوسك لترسل سهماً . . ولو كنت خبيراً بضرب السيف كما أنت خبير بالرماية لاعترفنا بأنك سيد الأبطال . . قال هذا وضحك . فقام في ذهن الفتى أن عمه يسخر منه ولو أقسم له ذلك العم بكل ما على الأرض من الهة لما صدق أنه معجب به . إن سوء الظن ينتهي بالمرء إلى الشك في من حوله حتى يرتاب أخيراً من نفسه . واحتدمت نار الحسد في صدره حتى عقد الغضب لسانه فقضى الساعتين والثلاث في قبة الملك يداعب خنجره القصير في حزامه وهو مطرق لا يقول كلمة ، وأحيا الحراس والجنود الذين صدر الأمر بذهابهم غداً إلى الصيد ، ليلتهم هذه يشدون الأوتار ويشحذون السلاح . .

***

ركب معني جواده في صباح اليوم الثاني وهو يضمر الشر . حتى أن اسماعيل نفسه لم يستطع اخماد تلك النار التي تتأجج في داخله وكان أذينة مشرق الجبين ، وقد مشى مع ولده في طليعة الرجال ، يتقدم الجميع دليل الصيد على جواد يسبق الريح .

وانفرد معني باسماعيل فلم يمش بجانب الملك كما هي عادته في الأسفار ومربيه يحاول أبعاده عنه وصرفه إلى جانب عمه وهو لا يسمع له ولا يرضى بما يقول ، فلفت بذلك نظر أذينة وهيروديس ، فقال الملك : لقد أظهر لنا صاحبك الجفاء يا هيروديس . .

قال : بماذا يا مولاي ؟

قال : ما رأيناه قط بعيداً عنا في الأسفار إلاّ هذه المرة كأنه لا يريد أن يسمع صوت الملك !

قال : ذلك ما يمليه عليه خجله يا مولاي .

قال : لم يفعل شيئاً يستوجب الخجل ولكنه فتى جميل الوجه خبيث القلب . .

قال : أرى الملك واثقاً بما يقوله حطان عن معني . .

قال : لقد قلنا لك غير مرة أن حطان مصيب في قوله وأن هذا الفتى عق عمه حتى أنه لو استطاع لقتلنا وتربع في العرش الذي هو عرشك وعرش

أخوتك . . أتظن أنه يطيق أن يراك ملكاً وهو من العامة ويرضى هو بعمل السوط بين الجنود وأنت تحمل الصولجان ؟ ! أم تحسب اسماعيل ومن حوله رجال صلاح وقد غرسوا الفضائل في صدر الفتى وهذبوا نفسه كما يهذب أبناء الملوك ؟ ! إنهم جميعهم عصابة شر يطمعون بالسلطان وقد جعلوا معني رئيساً لهم يستثمرون طيشه ويستغلون خفته .

قال : وأنا أراه طيب القلب يا مولاي . .

قال : لقد عرف الذئب أن يكون حملاً عند الحاجة فلا تنتصر له لئلا يطمع بنا نحن الأثنين . . وعند ذلك سمعا الدليل يقول : هذا هو الغاب يا مولانا الملك . .

فأمر أذينة فربط الخيول في مدخل الغاب وتوغلت الرجال بين أشجاره الكثيفة يطردون النمورة بالصياح والأهازيج ثم يرسلون إليها سهامهم فيصرعونها ويرتفع الهتاف ، وإذا بمعني أمام الملك ووراءه عبد يحمل جعبة سهامه . فقال له أذينة : لقد أنسنا منك جفاء يا معني . . !

فقال : لو رأيت معني يبذل دمه في سبيلك لقلت هذا هو الجفاء . . قالها وشفتاه ترتجفان من الغيظ . . وخاصة الملك وحراسه وهيروديس يسمعون . . فتجهم وجه أذينة ورقصت القوس في يده . . لكنه كظم غيظه ولم يجب . . غير أن الفتى تمادى في قحته فقال : وقد جئت الآن أثبت لمن حولك أني أحسن الرمي فلا تهزأ بي أمام رجالك . . !! فنظر الملك إلى هيروديس وظل ساكتاً . . وكانوا قد أصبحوا في قلب الغاب وهم يسمعون صوت الأنمار ، وإذا بنمر تتوقد عيناه واقف فوق صخرة سوداء وهو يتحفز للوثوب فمد الملك يده بالقوس وتنحى القوم . وقبل أن ينطلق السهم أرسل معني سهمه فأصاب الوحش في قلبه فهوى الى الأرض فنظر القوم بعضهم الى البعض الآخر وساد السكوت . إن ذلك الأمر اجتراء على الملك لا يقدم عليه غير المجنون أما الملك فمشى إلى الأمام كأنه لم يبصر شيئاً مما جرى . . وقد رأى القوم أن معني لم يكترث لتلك الدهشة التي استولت عليهم بل مشى وراء عمه لا يلتفت إلى أحد حتى قارب جثة النمر فجعل ينظر إلى السهم العالق في جوفه وهو يبتسم ابتسامة الفوز مقرونة بمظاهر

الاستخفاف ، فاستطاع هيروديس أن يهمس في أذنه قائلاً أحذر أن تعود إلى مثل هذا يا معني ، فنظر إليه نظرة جفاء ثم انثنى يفتش عن اسماعيل حتى راه فقال : أتبعني يا اسماعيل فسترى العجب . . ! وأقبل الجند من الناحية الأخرى يتبعون نمراً آخر أصغر من الأول ولكنه أخف وأكثر هياجاً . . فتصدى له أذينة وأوتر قوسه . غير أن معني كان أسبق في الرمي فوثب الحيوان الهائج الى الفضاء ثم وقع والدم يسيل من فمه فتمتم أذينة يقول : هذه هي المرة الثانية فالويل لك وأسودت وجوه القوم . . حتى أن اسماعيل الخائن لم يكن راضياً عما يفعله مولاه الثائر . فدنا منه قائلاً : ستفضح نفسك يا مولاي . أما الفتى فلم يبال بقوله وبتلك العاطفة العالية يظهرها له أبن عمه هيروديس الذي يحبه .

وكانت أصوات الوحش تملأ الغاب ، والناس الذين يرافقون الملك لا يهتمون لها بل انصرفت أفكارهم الى ما رأوه من جرأة أبن خيران واستخفافه بأمبراطور الشرق ، ومن يجسر بعد ما جرى على أن يرمي حيواناً ؟ إن الملك يتميز غيظاً ولو حدق اليه القوم لرأوا ركبتيه ترتجفان . . وقد بدأ الاهتمام على وجه هيروديس وخاف أن ينفجر غضب أبيه فيقع ما لا يرده لمعني ، لكن اهتمامه ونصحه لم يثمرا ، فإن الدليل أومأ إلى الملك ليدنو منه ثم مد يده يشير إلى أدغال قامت هناك قائلاً : إن حيواناً اختفى وراء الأدغال . . فلم يلتفت أذينة إلى ما حوله ، بل تقدم بقدم ثابتة إلى ذلك العوسج الملتف وقد رمى قوسه وشهر سيفه يريد الصراع . . فلمعت السيوف في أيدي الرجال وأحاطوا بالملك من الجانبين يضربون حينما يرون ما يدعو إلى الضرب . . إلاّ معني فقد احتفظ بقوسه واسماعيل يشير إليه بحاجبيه أن لا يفعل . . وهو يسخر بجميع الذين ينصحون له بالتزام الرصانة والهدوء . حتى انفجرت الأدغال وظهر رأس هائل هو رأس لبؤة وراءها جراؤها وهي تملأ الغاب زئيراً .

فقال أذينة لهيروديس : كن ورائي وأحذر هذا الغادر أبن عمك . .

فقال الفتى في نفسه : مسكين معني يظنون به الشر وهو لا يعرفه ! !

ثم مشى الملك خطوتين واللبؤة تضرب الأرض بذنبها وقد ثار ثائرها لرؤية ذلك الجمع ينازعها السيادة في الغاب . . وقد حبس القوم أنفاسهم وجحظت

العيون . . غير أن المشهد لم يطل . فإن سهم معني أصاب اللبوءة في رأسها فاخترق الدماغ وسدل الستار فوجه إليه الملك عندئذ نظراً أحد من ذلك السهم وقال للحراس : أحملوا الجراء إذا استطعتم وعودوا إلى المعسكر فقد انتهى الصيد . . وانثنى راجعاً وهو ينظر إلى الأرض وحدقت العيون الى معني وقد حاول هيروديس أن يعاتب الفتى فلم يجد سبيلاً إلى هذا ، ولكنه كان واثقاً بأن النار تتأجج في صدر أبيه ، وراح فريق من الحرس يدعون رفاقهم المنتشرين في الغاب قائلين : لقد انتهى الصيد بأمر الملك ، فعرف القوم أن هنالك حادثا ثم ما لبثوا حتى فهموا كل شيء ، فلما وصلوا إلى مدخل الغاب ، أمر الملك جنوده بأن يركبوا أفراسهم وبقي هو واقفاً .

فقال معني لعبده : هات الفرس . . فدنا اذينة من ذلك العبد قائلاً له : أركب أنت فرس هذا المجنون !! . . فعلا العبد ظهره كما أمره الملك . .

فقال معني . ما معنى هذا يا عم ؟ !

ـ : معناه أنك تمشي أمام الجيش إلى المعسكر والقوم يركبون .

قال : أبن خيران يمشي ؟ ؟

ـ : أجل وعليك أن تتقدم الخيل .

قال : وإذا أبيت ؟

قال : إن ذلك الذي يعصي الملك لم يخلق بعد . .

فقال اسماعيل : أمشي أنا ويركب معني يا مولاي !

قال : ما سألنا أحداً رأيه في هذا الأمر ولا نأذن لأحد في الكلام . أمش يا هيروديس . .

فقال ذلك الطيب القلب : أسمح يا مولاي . .

فقاطعه قائلاً : لا نسمع رجاء ولا شفاعة يجب أن يسير ماشياً إلى المعسكر وقوسه في يده ، فرفع معني صوته قائلاً : لست سيداً لي يا أذينة ولو سودك الرومان .

فابتسم الملك بمرارة وقال : إذا قدرت أن تخرج عن الطاعة فافعل . .

قال : لقد خرجت منذ الآن !!

قال : أعرف هذا فإذا قتلت ابن أخيك أيها الظالم خلا لك الجو . .

ولو جمع الملوك في تلك الساعة كل ما في صدورهم من حلم لما كانوا أحلم من أذينة . لقد ظن القوم أن الملك سيفاجىء الفتى بضربة سيف تفصل رأسه عن جسده ، ولكنه لم يفعل بل قال : أيقوم في ذهنك أيها المغرور أن عرش تدمر لا يثبت وأنت حي ؟ :

قال : أجل فأنت تؤثر أن يموت صاحب الحق في الملك لتتمتع أنت ويتمتع بنوك بما غصبت . .

قال : أنحن غصبناك العرش وأبوك لم يكن له غير الرئاسة بالاسم ؟

قال : يكفي أن يكون أبي سيد تدمر فلما مات وضعت يدك أيها الظالم على هذه السيادة ومنعت الولد الذي تحاول أن تذله الآن ، من أن يستولي على حقه ! .

قال : إن أباك لم يترك لك عرشاً بل ترك لك مالاً أعطيناك أياه وزدناك من مالنا حتى أمسيت أغنى من الملك . ذلك هو حقك أيها المجنون ، وأما رئاسة الشيوخ فلم تكن ملكاً لأحد بل هي هبة من الرومان يهبونها لمن يشاؤون من الرجال دون أن تكون تراثاً لبني السميدع . أتعلم لماذا جعلوا أباك رئيساً لتدمر ؟ إنهم فعلوا ذلك ليستفيدوا من استسلامه اليهم بل من استسلامه إلى الخمول وراء أربعة جدران ، ونحن . . كما يعلم الذين ربوك ، لم تمنحنا روما رئاسة المجلس بل استولينا عليها بقوة عقيدة ثابتة في صدرنا لا تتزعزع هي أن نجعل تدمر عاصمة ملك حدوده هذا الشرق . وأنت ترى أن هذا السيف هو الذي سود أذينة كما سترى أنه سيبسط نفوذ تدمر فوق بلاد سابور بعد قليل ، وكان أذينة يقول هذا ليسمع اسماعيل ورفاقه ، فحاول الفتى أن يجيب فاسكته قائلاً :

وكنت طفلاً . . فرباك اسماعيل في أحضان الكرامة والعز . وبذلنا لك فوق ما نبذله لأولادنا من أسباب السعة والرخاء . فنشأت ولداً جاهلاً يعق المحسن اليه ويغمط نعمة عمه ، وكان اسماعيل وانصاره يرتجفون من الخوف وهم لا يدرون كيف ينتهي ذلك الحادث الذي أوجده طيش معني ، إلى أن قال أذينة :

ولولا صلة الرحم لقيدنا يديك ورجليك وجعلناك في هذا الغاب تتسابق الى جسمك الأنمار والأسود . . تجترىء علينا فنسكت . ثم تتمادى فنقابلك بالصبر على رغم كل هذا تنتهك حرمتنا وتجفو لنا أمام الأمراء والقواد كأنك أنت الملك ونحن عبيد لك .

قال : إنك ملك في نظر الناس أما أنا فلا أعترف بالظالم . وأما إذا كنت ربيت في أحضان العز فالقصر قصري والمال مالي والعبيد عبيد أبي ولو عدلت لرجعت إلى البادية تصيد السباع ، وخطا بضع خطوات وهو يهم بأن يرسل سهماً من سهامه . إلى صدر ذلك الملك الغاصب الذي لا يطيق أن يراه . . فوضع أذينة يده على سيفه وقال لحاجبه البدوي : خذ قوس الفتى وخنجره أولاً . .

فجرد معني ذلك الخنجر وقال : إن الملوك لا تسلم سلاحها إلى الحجاب . . ولكن البدوي لم يرجع بل مشى مشية جبار ينفذ أمر مولاه وهولا يعبأ بالشفرة الحادة يلمع فيها الموت ، فعالجه أبن خيران بطعنة لو أصابت صدره لكسرت الأضلاع ، ولكنها أصابت الهواء فإن البدوي عرف كيف يتقي غدر الفتى ومد اليه يديه القويتين من الوراء ، وحمله كما يحمل الطفل وهو يهدد ويتوعد ويحاول الأفلات ولا يستطيع ، فجرد الملك سيفه وأقبل على الأثنين قائلاً لحاجبه : أتركه ودع الخنجر في يده . . وعند ذلك ترجل هيروديس وهمز الحراس أفراسهم فاحاطت بالملك . فوضعه البدوي على الأرض وتراجع الى الوراء . . فأومأ إليه الملك بسيفه قائلاً : أمامك واحد من أمرين ، أما أن تضرب صدرنا بخنجرك وأما أن تطرحه وتطرح القوس . . وكان وجه أذينة في تلك الساعة أسود كالليل وقد ظهرت على جبينه تلك الدلائل التي ترتسم عليه في ساحات القتال ، فأرخى معني نظره إلى الأرض أمام نظر أذينة الحديدي والخنجر المذهب القبضة يرتجف في يده . .

فقال أذينة : لا تتردد في تنفيذ ما أمرناك به . اما أن تسلم وأما أن تضرب فسقط الخنجر من يده . . فمد أذينة يده وأخذ القوس ثم قال للحاجب : احتفظ بهذا السلاح نضعه على مذبح الالهة في تدمر ذخيرة ثمينة تركها لنا أخونا خيران .

ثم قال لمن حوله : كبلوه بالقيود . .

فقال هيروديس : والآن يا مولاي ؟
قال : إن الملك يأمرك بالسكوت . .

فوضع القيد في يده وهو مطرق لا يرفع رأسه ، فنظر الملك عندئذ إلى القوم قائلاً : لقد حفظ المجنون حياته فارجعوا الآن . . فمشت الخيل ، ومعني وحده يسير ماشياً بين الخدم والعبيد ودموعه تتساقط على خديه .

***

كان هيروديس واثقاً بحلم أبيه ، وقد تفطر فؤاده وساءه ما جرى لابن عمه العزيز ، وكلما استعرض ذلك الموقف وذكر أقوال معني ، قام في ذهنه أنها أقوال غلام قذفت بها إلى فمه ثورة نفسه التي هدأت بعد حين ولم يخطر بباله قط أن تلك الثورة لا تخمد نارها إلاّ إذا أضحى هو واضحى أبوه جثتين . !

مسكين معني . . أبن الدلال وأبن الملوك . . يقيد كالمجرم ، ويجعله الملك في خيمة من خيام السجون . . ؟ ! ولماذا ؟ ألأنه رمى النمر قبل أن يرميه عمه وقد فعل هذا وهو لا يعلم أنه إهانة للملك ؟ ! إن ذلك لا يسلم به قلب طاهر كقلب هيروديس ، فقال لأبيه : ألم يكف معني ما أنزلته به من عقاب يا مولاي ؟

قال : نراك لا تهتم إلاّ لهذا كأنك تستسهل أهانة الملك وكأن معني كل شيء في هذا الوجود .
قال : إنه ابن أخيك يا مولاي . .
قال : أجل ولكن ليس لنا في تدمر عدو سواه .
قال : كان موقفه في الغاب موقف طائش لا موقف عدو .
قال : مهما يكن أمره فهو يقول أننا غصبناه العرش والآن ماذا تريد يا هيروديس ؟
قال : جئت أسألك العفو عنه يا مولاي .
قال : أنك تسألنا أمراً لا وجود له . .
قال : أليس لعفو أذينة الملك وجود ؟
قال : لا فكل ما يوجد عند الملك قصاص لا شفاعة فيه بعد الآن .

قال : ومتى إذن يخرج الفتى من سجنه ؟
قال : يوم يخطر ببال الملك أن يفعل ذلك .
قال : أخشى أن تطول أيام سجنه كما طالت أيام فالريان في سجن سابور . .
قال : قد يكون هذا وحسبه أننا لا نجلده كل يوم كما كان شأن الفرس مع أسيرهم .
قال : أستحلفك برأس أمي الملكة أن تطلقه .

فأجابه بدون أن يتردد : ونحن نقسم لك برأس زينب أنه سيبقى اليوم في السجن ولا ننظر في أمره إلاّ بعد وصولنا إلى حمص .
قال : عدني يا مولاي أنك ستجعله حراً .
قال : لا نعدك بشيء من هذا ؟
قال : أيجعلني الملك شريكاً له في المُلك وأنا لا أستطيع أن أسأله العفو عن نسيب لي ؟ فكره أذينة أن يرد سؤال هيروديس وهو أحب ولده إليه . فقال : نعدك بالنظر في أمره ليس غير .
قال : أما أنا فقد رضيت بهذا الوعد . .

***

كان معني في سجنه حراً بكل شيء إلاّ بالخروج من ذلك السجن . يقابل من يشاء ويحدث من يشاء ، لا رقيب عليه . ولا عين لأذينة ينقل إليه أقواله ! وهذا هو الجهل بعينه كأن أذينة عاد إلى استخفافه على رغم ما جرى له مع الفتى لا يهتم لما يقول ولما يفعل . . وكان اسماعيل لا يفارق مولاه إلاّ لقضاء حاجة ، وهو يقسم له بجميع الالهة أن الأمر سينقضي في حمص . . وكلما دخل هيروديس على السجين الثائر رأى اسماعيل منفرداً به يتحدثان بصوت لا يسمعه أحد ، وينهض اسماعيل فيذهب ويبقى ابن الملك . . فلما وعده أذينة بالعفو عنه أقبل على معني وهو مشرق الجبين وقال : لقد وعدني الملك باطلاقك بعد وصولنا الى حمص . . فبرقت عينا الخائن وتمتم لأبن عمه الفاظ الشكر . ثم أخذا يذكران الملك ومعني يظهر ندمه على ما حدث في الغاب . ويذرف الدمع الغزير هو دمع الحسد والغيظ

لا دمع الندم . وعندما كان الجيش سائراً في طريق حمص ، كان هيروديس يترك أباه . ويمشي إلى جانب السجين المظلوم يعزيه ويسليه ، حتى دخل الجيش المدينة في صباح يوم وساحتها الواسعة تكاد تضيق بوفود الناس أن الذين جاءوا يستقبلون الملك العظيم كانوا الوفاً . . ولكنهم جاءوا بأمر معني واسماعيل يخفون خناجرهم تحت الأثواب . فنزل الملك وهيروديس في بيت الوالي ، وتفرق الجيش الصغير في المدينة يلهو ويشرب الخمر.

أما معني فكان في منزل الملك ، ولكن في غرفة كبيرة واسعة . واقعة في غير الجناح الذي يقيم فيه أذينة . وقد جعل المتآمرون تلك الغرفة مجلساً سرياً تصدر منه أوامرهم لأولئك الأنصار المنتشرين في المدينة وأذينة كثير الحذر على نفسه وعلى ولده ولكنه لم يبث عيونه ليحصوا على خصومه الأنفاس . أجل ، في قصر الملك نفسه كان يجتمع المتآمرون وفي غرفة السجين الصغير أجمع القوم على قتل الملك وقتل هيروديس . وأذينة يجلس للمظالم ويهتم لشؤون شعبه ، ومن عادة الملوك ان يحتفلوا بعيد مولدهم . هكذا كانوا يفعلون في الماضي وهكذا يفعلون اليوم . فصدر أمر الملك ليعدوا عدة العيد ودعا جميع الأمراء والوجوه ، إلى مأدبة تقام لهذا الغرض ، في يوم قريب عينه لهم ، وراح هيروديس يستعطف أباه ليطلق المظلوم ، فرفض الملك طلبه في بادىء الأمر . ثم أمر بأن يكون معني بين المدعويين إلى وليمته . وفي تلك الليلة التي نقل فيها الفتى البشرى لأبن عمه . . نعم في الليلة نفسها وضع المتآمرون خطتهم واقسموا يمين الطاعة لأبن خيران . أعدت حمص لوليمة الملك كل شيء ، كما أنها أعدت كل شيء لأعدامه وأعدام ولي عهده . كان الخونة خبراء في قلب العروش لم ينسوا أمراً ولم يذهلوا عن امر . وقد عرفوا كيف يستولون ـ بفضل الوالي الخائن ـ على قلعة المدينة الواقعة في مكان كثير الصخور كما عرفوا أن يحيطوا القصر بجنود لهم تحسبهم من عامة الناس ، وأنصار أذينة في حمص أضعف من أن يحفظوا حياته وحياة ولده . ومعظم الأمراء من الخونة وان أظهروا الأخلاص كما مر ، وكان اسماعيل وأنصاره واثقين بأن أول صوت يرتفع بالدعاء للملك الجديد . . يخنق اصوات المقربين الى الملك القتيل . وقد يدفعها إلى الهتاف لمعني ، وأقبل المدعوون . . الوجوه والأمراء وعظماء الجيش المقيم في حمص يخفون تحت أرديتهم سلاحهم المشحوذ ،

ويضمرون البغض الهائل الذي هو أمضى من ذلك السلاح ، واصطفت صفوف الناس على الأبواب وأمام مدخل القصر يدافعون الحراس والجنود . . وكأن أذينة بنفسه ومعه هيروديس ، يستقبلان المدعوين ويبتسمان لهم حتى دخل الجميع بينهم معني ، يلبس رداء مذهباً كرداء هيروديس ، هو رداء العيد . فتجهم وجه أذينة وأدار وجهه كي لا يراه . غير أن الفتى كان حكيماً في ذلك اليوم . فقد أقبل على عمه يريد أن يلثم طرف ردائه فأومأ اليه بعظمة أن يجلس بين الأمراء ثم قال : سنرى بعد هذه الوليمة إذا كنت تستحق الحرية أم نعيدك إلى السجن . فأجابه وهو مطرق : سيرى الناس إني أستحق ما ذكرت . . !

قال : أنادم أنت على ما فعلت ؟

قال : أظهر لك ندمي وأنت لا ترضى .

قال : ليس الندم بالفاظ تخرج من الشفتين . . إن الملك يريد أن يراك أهلاً لعطفه . . فقال الفتى في نفسه : سيتضح لك اخلاصي بعد ساعة أيها الغاصب . .

وقبل أن يأذن أذينة بالشراب . . خرج مع هيروديس الى شرفة القصر وقال له : ستحتفل هذه الأجناس من البشر ، بعيد الملك هيروديس بعد موت أذينة .

فأجابه الفتى قائلاً : خير لي أن تبقى يا مولاي وأنا من جنودك . ثم دخلا وأحضر الشراب . . الملك في صدر المجلس ، وهيروديس عن يمينه . وقد أذن لمعني في الجلوس عن شماله . وذلك بفضل هيروديس نفسه الذي طيب قلب أبيه . وشرب الملك وشرب القوم ثم استلذوا الخمر فأخذوا يجرعونها حتى سكروا إلاّ أثنين كانا يتظاهران بالسكر ولم يجرعا غير جرعتين . هما معني نفسه وضابط من ضباط الحراس الذين باعوا ضمائرهم لمعني بالمال ، وذلك الضابط لا يبعد كثيراً عن ولي العهد . . وعيناه تحدقان الى معني . وعينا هذا الأخير تنظران إلى اسماعيل الذي شرب حتى ارتوى ، ومرت ساعة والناس في فرح . وقد ذكر الملك في ذلك الحين زوجته وأولاده فقال لهيروديس : لقد كتبنا أمس إلى الملكة وبعثنا إليها رسولاً ينقل إليها أخبار الجيش الذي تحبه . ويا ليتها كانت معنا في ذلك الغاب تشاركنا في صيد الأنمار . . إنها كالملك تصارع الأسد ولا تبالي . .

فقال اسماعيل : أتذكر يا مولاي يوم الصيد العظيم في وادي تدمر والملكة تركض وراء الفهد والسيف في يدها تريد ان تصرعه به ؟

إن ذلك المشهد لا يزال أمام عيني كأني أراه الآن . . فجاش العز في صدر أذينة وقال : ألا تذكر حادثاً أعظم من هذا جرى في ذلك اليوم يا اسماعيل ؟

قال : بلى يا مولاي أذكر ذلك الصراع الهائل بين فهد أصفر الجلد طويل وبين الملك .

فقال هيروديس : ولكن الصراع بالسيف أصعب يا مولاي .

قال : أجل وقد صرعنا الفهد في ذلك اليوم بالخنجر بعد أن وضعنا الرمح في فمه .

قال اسماعيل : كيف استطعت يا مولاي أن تضع خنجرك في القلب .

قال : أتكأنا على الرمح حتى لامس رأس الفهد الأرض ثم ضربناه فغاصت الشفرة في جنبه ووصلت إلى قلبه ، وعند ذلك نهض معني والكأس في يده وهو يتمايل كالسكران أخذت فيه الخمرة . .

وقام ذلك الضابط من الجانب الآخر وهو يقول : أشرب لصحة مولانا الملك قبل إن يسبقني الأمير معني . واتجهت العيون إلى الاثنين واصفرت الجباه .

فهمس هيروديس في أذن أبيه قائلاً : هذا معني قام يعتذر ويظهر ندمه ! ! فلم يلتفت أذينة إلى ذلك الغلام الناكر الجميل . .

أما اسماعيل فكأنه لم ير شيئاً مما جرى . بل قال : لا أظن أن أحداً يستطيع أن يضرب مثل ضربة الملك . .

فارتفع في تلك القاعة العظيمة صوتان يقولان : نحن نضرب مثلها ولكن في قلوب الملوك ، وغاص خنجران : خنجر الضابط وخنجر معني في ظهري الملك وهيروديس إلى القبضتين . .

ونهض القوم وجردت السيوف والخناجر من الأغماد . . . فهجم أنصار الملك يدافعون عن أنفسهم ، فسقطوا جثثاً فوق جثة مولاهم وجثة ولده ، ولماذا تحصدهم السيوف ولا سلاح معهم وهم يسكرون ؟! إلاّ واحداً من الحراس

المخلصين استطاع أن ينتقل إلى قاعة أخرى ويفر منها إلى الخارج واليأس ملء قلبه ، وكان حاجب أذينة البدوي بالباب وهو لا يترك سلاحه . فلما رأى الملك غارقاً في دمه ورأى خناجر الخونة تخطف أرواح الأنصار هاج هائجه ووثب إلى داخل القاعة يريد أن يثأر بالقتيلين العظيمين . . لكنه لم يخطو خطوتين حتى داسته الأقدام جسداً بلا روح . . فلم يبق في تلك القاعة رجل واحد من حزب الملك . . وقد حدث كل ذلك بسرعة لا يقوم في ذهن عاقل أنها سرعة بشر . .

كانت الخناجر تخرج من الصدور لتغمد في الظهور دون أن يرتفع صوت لأولئك الخونة الغادرين . وقتيل أحد من القتلى الكثيرين الذين يملأون القاعة لم يستطع أن يصيح أو يستغيث . . وأن الطعنات كانت تصيب القلوب . وذلك السلاح الفولاذي القصير يقطع الحديد حتى أن الملك وهيروديس لم يلفظا كلمة واحدة قبل الموت . . بل لم يستطع أحدهما أن يوجه إلى الآخر نظرة وداع . .

لقد كان الدماغ الذي وضع خطة القتل في مثل ذلك الشكل السريع الهادىء . . دماغ شرير نابغة في صيد الأرواح . . كما كان الملك نابغة في صيد الاثمار . . . وبينما كان الشعب الذي يحب ملكه يضج في الخارج ضجيج الفرح والاستبشار ، كانت علائم القلق والخوف تعلو وجوه الخونة الذين يحفظون منافذ القصر ، وكانت جثث الأبرياء تنقل من الداخل الى السراديب ثم إلى الخلاء في أطراف حمص حيث توضع في الحفر وتحجب تحت التراب . .

وبعد ساعتين ، لبس معني رداء أذينة وتقلد سيفه . ووضع على رأسه خوذته الصفراء التي خاض بها الميادين . . وجلس على مقعد حجري عال جعلوه عرشاً . ثم خرج الوالي واسماعيل الى شرفة القصر المطلة على الساحة وصاحا قائلين : لقد أضحى معني أبن خيران ملككم فليعش الملك . . فهتفت طوائف الخونة : يعيش الملك . وشاركهم في الهتاف ـ ولكن في الظاهر ـ أنصار أذينة وقد عرفوا أنه قتل . . ثم بدأت الوفود تدخل على معني لتقسم يمين الطاعة له ، وبينها قائد الحامية في حمص وهو من أشياع الملك القتيل . . وكان ذلك في أواخر السنة ٢٦٦ للمسيح . . « وفي هذا يقول الأعشي من قصيدة» :

أزال أذينة عن ملكه   وأخرج عن أهله ذا يزن

***

معني الأول ـ حمص الثائرة .
زينب امبراطورة الشرق .

ـ ١٨ ـ

في مساء ذلك اليوم التاريخي المدهش ، أقبل على ظاهر حمص شيخ بيضت السنون رأسه ولحيته ، ذو عينين براقتين ساحرتين . . ووجه مستدير لونه كلون النحاس ، وملامحه ، على رغم تلك الشيخوخة البيضاء ، ملامح جبار يحمل في يده عصا هي سلاحه ، وعلى كتفه جراب طويل فيه زاده من التمر والعسل ، وقد شد وسطه بمنطقة هي قطعة حبل من الكتان ، وجميع مظاهر الشيخ مظاهر فقير لا يملك غير جرابه وعصاه . لكنه يمشي بعزم الفتيان ، مشياً ثابتاً موزوناً كالجنود القدماء . . وكان بينه وبين المدينة مسافة نصف ميل وهو يخشى أن تقفل حمص أبوابها قبل أن يصل . فتعجل في مشيه ، ولكن لفت نظره رجل بلباس الحراس مستند إلى جذع شجرة ورأسه بين يديه ، فدنا منه وهو واثق بأن يستطيع أن يدخل المدينة مع هذا الحارس ساعة يشاء ، فرفع الحارس رأسه فرأى الشيخ جبيناً طبعه اليأس بطابعه ، وعينين تملأهما الدموع . . فقال له : أتبكي وأنت من حراس الملك ؟؟ فأجابه الرجل بصوت يخنقه البكاء قائلاً :

أتستغرب بكائي وأنا من أشقى الناس ؟

قال : قد يكون في الناس من هو أكثر شقاء فخبرني ماذا جرى لك ؟

قال : من أنت وكيف عرفت أني من الحراس ؟

قال : أما أنا فعربي يقيم عند مخرج الوثاروس يزرع أرضه الصغيرة التي لا تكفيه . وأما كيف عرفت أنك من الحراس فقد زرت تدمر فيما مضى ورأيت فيها

الوثاروس» .

ـ ولماذا قدمت حمص ؟

ـ لأرى فيها فارسين من فرسان القائد زبـاي ، هما ولـدي البـكر وأبـن أخي . وقد استأذن في الدخول على الملك فيحسن إلي كما أحسن في المرة الأولى يوم رأيته أمام هيكل بعل في عاصمته ، فشهق الرجـل واسترسـل في البـكاء ، فوضع الشيخ جرابه وعصاه إلى جانبه ، وجلس قائلاً : استحلفك برأس الملك أن تذكر لي سبب هذا البكاء .

قال : لتلعن الالهة هذا الملك فأنا لا أحلف برأسه . .

قال : أتبغض مولاك وأنت حارس له ؟ !

قال : بل أبغض من يحب هذا الملك السفاح الذي تلطخت يداه بدماء الأبرياء .

فاحمرت عينا الشيخ وقال : لا تذكر أذينة بسوء فهو خير الملوك . .

فانفجرت دموع الحارس ورفع صوته قائلاً : وأين هو أذينة أيها الشقي ؟ ! إن خير الملوك قتل في هذا اليوم وقتل ولده . .

فتمتم الشيخ قائلاً : أذينة وهيروديس ؟ !

قال : أجل قتلهما معني الظالم الذي نادوا به ملكاً على الشرق . . !

فاضطرب الشيخ وانحدرت دموعه تبل لحيته وثيابه وساد الصمت الأثنين وكأن الحارس شعر ببعض العزاء . فقد وجد في وحدته رجلاً يشاركه في حزنه . ويبكي معـه ذينـك القتيلـين العـزيزين . وقـد يكون له عونـاً في الانتقـام من الغادرين .

فقال : أتبكي الملك أم ولي العهد أيها الشيخ ؟

قال : أبكي الاثنين واستنزل اللعنات على رأس القاتل . . وكانت الألفاظ تخرج مع نفسه كحشرجة المائـت ، فقـال الحـارس : المرء لا يبـكي إلاّ الـذين يعرفهم .

قال : وأنا قد عرفتهما في تدمر كما قلت لك ، وإذا رأيتني حيا فمن فضل ما أعطياني وأعطيا ولدي ، ثم أخذ يمسح دموعه ويقول : مسكين أذينة كان عظيماً في كل شيء حتى في صبره على معني . أليس هو أبن أخيه ؟
قال : بلى .
قال : كنت أسمع الجنود يقولون أن هذا الفتى يبغض عمه .
قال : صدقت ويا ليته قتل بسيف قائدنا أبن حمدان يوم حاول أن يشتري الحراس بالمال . . إن معنا كان يخاف أذينة كما كنا نخافه نحن . أما اليوم فلا نخاف أحداً وإذا كان هنالك من يجرؤ على قتل الخائن فهو أنا . . فبرقت عينا الشيخ وقال : ممن أنت أيها الرفيق ؟

فنظر الحارس اليه نظرة شك وسكت . .

فقال له : خبرني كل شيء فأنا عدو الملك الجديد وأقسم لك . . فتردد الرجل في الجواب ثم قال : إني إذا ترددت فلست جباناً ولكني أخشى أن يعرف الظالم فيقتلني قبل أن أثأر بمولاي وأبن مولاي . .
قال : ألا تجعلني شريكاً لك في غرضك ؟
قال : ليس لي غرض إلاّ الأنتقام فهل توافقني فيه ؟
قال : نعم وهذه اليد التي ترتعش من حمل العصا لا ترتعش من حمل السيف .
قال : لا نحتاج إلى السيوف أيها الشيخ بل إلى الرجال الأكفاء المخلصين .
قال : وماذا يفعل هؤلاء ؟
قال : إذا وجدوا حملت لواء العصيان ودخلت على الملك في قصره وبين حراسه فذبحته في حضن اللعين اسماعيل . . فاكفهر جبين الشيخ وظهرت على شفتيه ابتسامة حقد هائل اهتز له الحارس الأمين . فقال : أتعرف اسماعيل هذا ؟
قال : نعم .

قال : إذن فأنت تعرف امراء تدمر وعظماء الجيش . أتعرف زبدا وزباي ؟
قال : وأعرف قائدك معن بن حمدان . .

قال : أتراهم يقسمون يمين الأخلاص للملك الجاني ؟
قال : أتكون بين حراس أذينة ولا تعرف المخلصين له ؟ !
قال : لقد أصبحنا في زمن لا تعرف فيه الصاحب من العدو . .
فابتسم قائلاً : أما أنا فاعرف كل شيء . . إن الذين ذكرتهم هم أنصار أذينة .
قال : أواثق أنت ؟
قال : أجل .
قال : لقد طابت لي الحياة الآن فإن لم أقتل معني قتله هؤلاء .
قال : ولكنهم منتشرون مع الجيش في الأقطار . .
قال : وسيرجعون بعد أيام . .
قال : إن في الجيش خونة كثيرين على رأسهم ذلك الروماني اسكندر وزنباع قائد الرماة . . فاستولت الدهشة على الحارس وقال : أراك خبيراً بأحوال الجيش حتى أنك تسمي الأشخاص والأحزاب .
قال : وأعرف أيضاً أن رفاقك الحراس أنفسهم بعضهم خائن .
قال : استحلفك بتربة أذينة أن تقول لي من أنت . .
قال : إنكم معاشر التدمريين كثيرو النسيان . . إلاّ تذكر أمين أسرار الملك ؟ !

فجعل الرجل يتفرس في عينيه اللامعتين ثم انتفض فجأة وقال : حطان ؟ !

فهز الشيخ رأسه قائلاً : أجل . حطان المنكود الحظ الذي ترك الجيش وعصى أمر الملك ليحفظ حياته وحياة هيروديس . . حطان الذي أبعده مولاه هازئاً بنصحه . مستخفاً برأيه ، فأخذ الحارس يردد كلامه ثم قال : حطان أمين أسرار الملك سيد الحكماء وما هذه اللحية البيضاء ؟ . .

قال : تنكرت لأنقذ أذينة على رغمه فنفذ القضاء قبل وصولي إلى حمص .
قال : ألم يكن يريد أن تنقذه ؟

قال : لا ، كان واثقاً بأن المتآمرين أضعف من أن يمدوا اليه يداً فقتلته تلك

الثقة العميلة التي قتلت قبله الكثيرين من الملوك . وكان هيروديس يحب أبن عمه ولا يتهمه بسوء . فكان الخنجر أبلغ دليل قابل به معني ذلك الحب . والآن فخبرني كيف قتل الأثنان . . فروى له الحارس رواية القتل كما جرت إلى أن قال . وكان اسماعيل يصف صراع الملك مع الفهد وقد جعل المتآمرون وصف ذلك الصراع علامة بينهم لتغوص خناجرهم في ظهور الأبرياء كما غاص خنجر الملك في جنب الفهد . . ولو رأيت أذينة وهيروديس في تلك الساعة يا حطان لما نسيت قط ذلك المشهد الهائل الذي يتفطر له فؤادي كلما ذكرته . . كانت الكأس في يد الملك، وهيروديس يحدث والي حمص والابتسامة لا تفارق ثغره . . فلما هوى الخنجران أنكب أذينة على وجهه وارتمى هيروديس في حضن الوالي لم يقل أحدهما كلمة بل لم يتنفسا وقد غرقت الجثتنان في الدماء ثم رأيت الخناجر تغمد في الصدور ومعني واسماعيل يأمران الرجال بقتل الحراس فاستحر القتل وعلا الصياح ونحن لا سلاح لنا غير الأيدي نتقي بها طعنات المتآمرين، فمسح حطان دموعه وقال : ومن طعن الملك؟

قال : طعنه معني من لوراء . وفي اللحظة نفسها ضرب ضابط من ضباط الحرس هيروديس كأن اليدين الضاربتين يد واحدة . . !

قال : وكيف فررت ؟

قال : مرقت بين الرجال كما يمرق السهم الى قاعة أخرى جعلت فيها صناديق الخشب ينقلون فيها جثث الأبرياء . ومنها إلى شرفة وثبت منها إلى شجرة من الحور النابت وراء القصر ثم تركت المدينة إلى هذا الموضع أبكي فيه مليكي وأبن مليكي اللذين شرفا بلاد العرب .

قال : وقد خرج اسماعيل ينادي بمولاه ملكاً فهتف له الشعب والجيش .

قال : ما عرفت شيئاً من هذا ولكني سمعت أصوات الهتاف . . فاطرق اليهودي ملياً ثم قال : ليست الغرابة في أن يقتل الملك وأبنه من يد الخونة . بل الغرابة في أن يصبح معني امبراطور الشرق ويمسي اسماعيل سيد العرب . . ! إن هذا وحده أعجوبة الأعاجيب في هذا الجيل . . أذينة وهيروديس يموتان ومعني يملك ؟ !-الأسد يسقط في الشرك والذئب يجلس على العرش ؟ ! فلا كنت يا

حطان إذا أبقيت على الغادرين . .

ثم قال : من أي بلد أنت يا سيار ؟

قال : من حمص . .

فذعر حطان وقال : من حمص الخائنة ؟

قال : أما حمص فلم تخن يا مولاي . إن أولئك الخونة هم من الغرباء .

قال : وأهل المدينة ؟

قال : جميعهم مخلصون لأذينة القتيل إلاّ نفراً قلائل يطمعون بمناصب الحكم .

قال : أتعرفهم أنت ؟

قال : أعرف في حمص كل ما تسألني عنه .

قال : خبرني بما تعرف عن الحامية .

قال : حامية خائنة أما قائدها فلا .

ـ ومن قال لك ذلك ؟

قال : أبن عم لي هو رئيس قومه .

قال : ممن أنتم ؟

ـ من بني حنفي وهم كبني حمدان يقيم بعضهم في حمص والبعض في بادية دمشق .

ـ وأنتم عشيرة كبيرة يا سيار ؟

قال : بنو حنفي أصغر العشائر يا مولاي لكن رجالها أشداء . .

قال هذا وظهرت على وجهه دلائل الفرح . .

فقال حطان : وهذا معناه أنك تثق بهم في المحن . .

قال : نعم وإذا ثأرت بالقتيلين العظيمين فبسيوف هؤلاء . .

قال : أما الثأر فحطان ينظر فيه . وأما أنت فعليك أن تطيعني حتى يتم لك ما تشاء .

قال : كما يطيعك أبناء قومي جميعهم كما كانوا يطيعون أذينة .

قال : ومن تعرف من آل حمدان ؟

قال : أعرف الكثيرين منهم فليس فيهم خائن . .

قال : هلمّ إذن ندخل المدينة ونختار لنا مكاناً نقيم به .
قال : إن بيوتنا جميعها معدة لاستقبال أمين الملك .
قال : ولكن أحذر أن تقول لأحد مهما يكن أمره أني أنا حطان .

***

ما لبث القوم الذين اجتمعوا في حمص حتى تفرقوا وهم يلعنون ذلك الملك الذي تربع في عرش عمه . . ذلك لأن الوعود التي وعدهم بها اسماعيل كانت الفاظاً خلابة خدرت أعصابهم زماناً طويلاً ثم لما استفاقوا لم يجدوا شيئاً ، واسماعيل هو الدولة . . إن معني الملك لم يكن في الواقع غير تمثال يلبس الديباج ويضع على رأسه التاج ، ولم يكن لمربي الملك غير غاية واحدة هي أن يكون صاحب السلطان المطلق . غير أنه ـ على رغم خبرته ودهائه ـ لم يعرف كيف يحتفظ لنفسه بذلك السلطان . . أبطرته النعمة فبغى . واستهوى نفوذ العرش معني فاستبد وجار . ولم يستطع الاثنان أن يرضيا رجالهما الكثيرين الذين باعوا ضمائرهم ولم يقبضوا الثمن . إلاّ بعض المقربين من التدمريين وأوغاد الرومان . فهؤلاء وفى لهم اسماعيل بما وعد . بعد حادثة القتل بيوم واحد ليس غير . . ولو لم يكونوا رؤساء قومهم لما خطر بباله أن يفي لهم بوعوده ، لأنه كان أحرص على المال من أن ينتقل إلى جيوب الآخرين . . فانقلبت الحالة فجأة ، من ثورة خفية على الملك القتيل إلى ثورة خفية على الملك الجديد ، لكن ليس لهذه الثورة رئيس . . والملك الفتى لا يعبأ ولا يبالي ولا ينظر مع مربيه إلى ذلك الأمر العظيم الذي تثبت معه أركان الملك . . . أي أنه مر شهران على تربعه في العرش ولم يكتب إلى غاليانوس الأمبراطور يسأله الرضى عنه . . وجيش أذينة لم يرجع ، وعلى معني أن يسترضي قواده الذين هم سادة الناس ورجال الحرب . على أن اسماعيل لم يهتم للآمرين . . إن غاليانوس الأمبراطور لا يجد بدا من الرضى ، وقواد تدمر لا يلبثون حتى يعترفوا بمولاهم أبن خيران .

وكانت رسله في بلاد ـ العلويين ـ ينتظرون الجيش القادم من شواطىء آسيا ليدعوا زعماءه إلى الاعتراف بذلك الملك ، حتى إذا رأوا عصياناً أنثنوا إلى سيدهم ينقلون إليه الأخبار ليعد عدته قبل أن يصل الجيش إلى حمص ، وزينب !! إن

زينب لم يحسب لها الخونة حساباً . . فهي مثل كل النساء تنفرد في غرفة لها تبكي زوجها الذي قتل . كما تبكي تدمر رجالها الذين تحصدهم الحرب . . ومن يشهر سيفه ليدافع عن الارملة العاجزة؟

إن رجال تدمر جميعهم لا يغضبون الملك الجديد ليرضوا المرأة التي خسرت كل شيء . . حتى أن زباي نفسه وهو أبو الملكة لا يجسر أن يخرج عن الطاعة ليخدم أبنته . . ذلك ما كان يقوله اسماعيل لمولاه . وقد فاته أن أولئك الرجال إذ لأنوا له فزينب لا تلين . بل إذا استطاع هو أن يخضع جميع الشرق لحكمه ، فزينب الأرملة . . زينب المرأة الضعيفة لا تخضع له . . إن الملكة المنكودة الحظ التي عاندها القدر وهي في مقتبل العمر لا تستسلم كما يستسلم الجبناء وكان على اسماعيل وهو الداهية أن يعلم أن تلك الأرملة ليست كجميع النساء . .

***

إنك تستطيع يا سيار أن تقابل الملكة وتنقل إليها ما ذكرت لك . .

فقال سيار : أخشى أن تخونني العاطفة يا مولاي .

فقال حطان : إن أمين الملك نفسه ترك حزنه على مولاه . ليهتم بما هو أعظم في نظره من هذا . فأبك ما طاب لك البكاء أمام زينب ولكن صف لها كل ما رأيت فعلى الملكة أن تعلم كل شيء .

قال : ولماذا لا تكتب إليها ما تريد أن أقوله ؟

فقال : أذهب يا بني فصدرك يحمل من الأسرار ما لا يحمله الرق الذي نكتبه .

وفي ظلام الليل خرج سيار وحطان يقول له : أحذر أن تخونك الذاكرة يا بني .

فخرج الحارس من المدينة على ناقة أشد سواداً من الليل ، وليس الخروج من باب المدينة صعباً على الرجل . فحراس ذلك الباب من أبناء قومه وهم على دعوته وبعد يومين كان في تدمر . تدمر التي كان يقيم فيها الشيوخ والنساء ، تدمر الناكرة الجميل التي خانت سيدها الأكبر وهو في قمة العلياء . . وقد عرف الناس

في تدمر أن الملك وولي عهده قتلا . ولكن من يجرؤ على المثول بين يدي الملكة قائلاً لها : قتل أذينة ؟ . . . فذهب سيار إلى بيت زبدا وقال لعبيد القصر أني رسول من ساحة الحرب الى كهيلة . . فاستقبلت كهيلة الحارس بقلب مضطرب خائف وقالت له : رسول من الحرس ؟ . . .

قال : نعم يا مولاتي أني من الحرس كما ترين .

فقالت وهي ترتجف : من أرسلك إلينا ؟

قال : حطان أمين أسرار الملك . . فتلألأ الدمع في عينيها وصاحت قائلة :

أقتل القائد العام ؟

قال : لا يا مولاتي فأبوك على رأس الجيش .

فقالت : وقائد الحرس معن بن حمدان ؟ وحبست أنفاسها لتسمع الجواب .

فقال : وأبن حمدان يقود فرقته يا مولاتي ولكن قتل من هو أعظم من الاثنين فأرخت نظرها إلى الأرض وأخذت تذرف الدموع ، أجل . لقد عرفت كهيلة أن ذلك القتيل هو الملك ، ثم قالت : أقتل في الميدان ؟

قال : بل قتل وهو يشرب الخمر في عيد مولده وقتل ولي عهده وجميع المخلصين لهما ، فجحظت عيناها وقالت : من هم هؤلاء المخلصون ؟

قال : بعض الأمناء والحراس يا مولاتي لأن القواد يحاربون الخوارج في الأقاليم .

فقالت : وهي تبكي : وكيف لم يقتل حطان ؟

فخبرها الفتى كل شيء ثم قال : وقد بعثني اليك حطان لتذهبي معي إلى الملكة .

قالت : لماذا ؟

قال : لتقيمي في القصر ريثما يعود القواد

قالت : إذن فحطان يخاف على الملكة من الأعداء .

قال : نعم وهو يحذر جميع الرجال .

قالت : وما هي المهمة التي يعهد بها إلي ؟

قال : يرغب اليك باسم العرش أن تسهـري على حياتهـا وحياة الأمـراء والأميرات ، فكادت الفتاة تختنق بدمعها وهي تقول : لقد خان التدمريون حتى لم يبق بينهم رجل مخلص ؟ !

قال : أصبت يا سيدتـي فجميع الـذين أحاطـوا بالملك يوم عيده كانـو خونة .

قالت : أما النساء فسيمحين هذا العار . أسبقني الى القصر ، ولم تشأ كهيلة أن تقول لزينب كلمة . . . لكنها لم تستطع إخفاء الدمع الذي يجول في عينيها الذابلتين ، فخفق قلب الملكة . وأصفر ذلك الجبين الوضاح الذي ينشر الرصانة ويرسل الجلال ، وهي بين وصيفاتها ونساء الشرف لا تنزل عن عزها ولا تستسلم الى العاطفة ، فلما دخل سيار جثا على ركبتيه وسبقته الدموع ، فنظرت زينب إلى من حولها قائلة : لا أرى إلاّ عيونـاً باكية فما وراءك أيهـا الجنـدي ؟ واستندت إلى كهيلة وهي تكاد تقع على الأرض .

فقال : جئت أنقل إلى مولاتي الملكة خبراً يهتـز له الشرق . . فدبـت في عروقها قشعريرة لم تحس مثلها من قبل وتمتمت تقول : أفعلها معني ؟

فقال : نعم يا مولاتي ونادى به رجاله ملكاً ، فانثنـت زينـب إلى أحـد المقاعد وجلست عليه . وكأنها نسيت في تلك الساعة زوجها القتيل العظيم ولم تفكر إلاّ في مصلحـة العـرش . . فقالـت وشفتاهـا تختلجـان . . ومـاذا فعـل هيروديس ؟

فقال : قتل أيضاً يا مولاتي . .

قالت : والقواد ؟

قال : يخضعون العصاة في الجبال .

قالت : فلما خلا الجو لابن خيران غدر بعمه وابن عمه وادعى الملك . .

قال : نعم ولم ينج من السيف غـير هذا العبـد الجاثـي على ركبتيه . . فشهقت الوصيفات بالبكاء . . أما زينب فكانت أعظم من أن تبكي لأن الملكات لا يبكين وساد القاعة صمت رهيب لا يسمع فيه غير الزفرات . . ثم رفعت الملكة رأسها قائلة : إذن فأنت رسول نفسك أيها الجندي . .

قال : بل أنا رسول حطان يا مولاتي وقد قدم حمص لينقذ الملك فنفذ القضاء قبل وصوله .

قالت : أهو حي ذلك الصاحب الأمين ؟

قال : أجل وقد تنكر لئلا يعرفه الظالمون . . فنهضت الى غرفة أخرى واسترسلت في ذرف الدموع على القتيلين اللذين كانا ملء نفسها الكبيرة ، ثم عادتِ وقد احمرت عيناها وقالت لسيار : أتعرف أين هم القواد اليوم ؟

قال : نعم يا مولاتي فماذا تريدين من هؤلاء ؟

قالت : إن الملكة بحاجة إلى المخلصين والأنصار . . أيقتل الملك وولي عهده والملكة منفردة في قصرها لا تجد حولها رجلاً ولا تسمع صوت عزاء ! .

قال : إن عبيد الملكة كثيرون في حمص وسيعودون إلى تدمر ليظهروا خضوعهم لامبراطورة الشرق وجلالة نجلها الملك الصغير . . فلم تتغير ملامح وجهها لهذه المفاجأة بل قالت : كان عليكم أن تعترفوا بوهبلات وانتم في حمص أيقوم في أذهان الشرقيين أن العرش يبقى لمعني . أم يظن اسماعيل واتباعه أن الأرملة التاعسة التي قتلوا زوجها تستسلم إلى الغادرين ؟ !

قال : لم يكن لأنصار الملكة رئيس يجمع شملهم الذي فرقته الحادثات .

قالت : وهل وجد اليوم ذلك الرئيس ؟

قال : نعم فهو حطان وقد انضم إليه الكثيرون من الزعماء وأفراد الشعب ينفخ في صدورهم روح الانتقام من الظالمين . .

ـ وهو يفعل ذلك من وراء الستار ؟

ـ نعم ، وسنخلع الظالم قبل قدوم الجيش .

قالت : اتغدرون به كما غدر هو بمولاه ؟

قال : بل نزحف إلى قصره في وضح النهار ونذبحه على عتبة ذلك القصر حتى يجري دمه على الأرض فتدوسه النعال .

قالت : وهل أنتم واثقون بالفوز ؟

قال : إن حطان يقول : لا يبزغ فجر سنة ٢٦٧ حتى يسقط العرش الذي بني على الظلم . .

قالت : وإذا قال ذلك الرجل قولا فقد صدق فيه . . . ألا يخطر ببال معني

أن يزحف إلى تدمر ليخضع زينب ويستولي على قصر الملك ؟

قال : كل شيء هين في نظر اسماعيل حتى أنه لا يستصعب استرضاء القيصر . أما معني فلا هم له يا مولاتي إلاّ بسط يده للشيوخ والزعماء يلثمونها بالخشوع والأحترام ويظهرون له الطاعة . .

قالت : وماذا يفعل بقواد تدمر ؟

قال : بعث اليهم رسله يدعونهم إلى الاعتراف بسلطانه . وإلاّ فهو يتهيأ للقتال . .

فبرقت عيناها ببارق الكبر والعز ثم قالت : كما تتهيأ الملكة لقتال هذا الظالم إذا بقي حيا . . فنظر اليها الرجل نظرة إعجاب . . فاستطردت قائلة :

أجل . وسنقود جيشاً لجباً نشتريه بالمال ونزحف إلى الباغي فنرى لمن يكون النصر . . إن المرأة التي خسرت زوجها لم تخسر عزها والملكة التي هوى عن رأسها التاج ستسترجعه بيدين قويتين وعزيمة أثبت من الجبال . . وعندئذ . . أجل عندما ذكرت الملكة كرامتها تساقطت من عينيها الدموع . . أي أن القوة لم تظهر حتى عقبها الضعف . فكفكفت تلك الدموع بسرعة وجلال وقالت لأحدى الوصائف ليحضر مولاك وهبلات . وكان الغلام في العام التاسع من عمره وهو لا يعلم من أمور الحياة إلاّ أنه ابن اعظم رجل في بلاد العرب . . . فلما دخل على امه أمرت نساءها بأن يسجدن أمامه كما يسجدن لها وللآلهة ثم قالت له : يا وهبلات : أتعرف من هو أبوك؟

فقال الغلام ولم يتردد : أبي أذينة سيد الشرق وملكه .

فقالت : أتستطيع أن تسود هذا الشرق كما ساده أذينة ؟

ففهم الغلام من عيون النساء وعيني سيار التي تملأهما الدموع . إن حادثاً عظيماً جرى في القصر . . فقال : وهل ضاعت تلك السيادة يا مولاتي ؟

قالت : إنها لا تضيع وأنا حية . . ولكن قتل أبوك وهيروديس فامسيت ملكاً بحق الأرث وعلى الملك أن يصون عرشه ويحفظ التاج . أفقادر أنت على هذا ؟

فكأن سهماً أصاب قلب الغلام . . لكنه لم تسقط له دمعة فقد أدرك أن البكاء لا يليق به وهو ملك . . أي أنه فعل كما فعلت أمه قبله .

فقال : من قتلها ؟

قالت : معني بن خيران الطامع بالعرش . .

قال : أما أنا قادر على صيانة الملك وأما هذا فلا . .

قالت : لماذا يا بني ؟

قال : لأنه ليس له أم مثل أمي . .

قال هذا وحاول الخروج من القاعة ليذرف الدموع ، فوضع سيار سيفه أمام أقدام الملكين وقال : أقسم بالتراب الذي يغطي أذينة وهيروديس أن سيوفنا لا تغمد حتى نظفر بمعني ونرى التاج على رأسك يا ملكنا الصغير أو نموت . .

فقال وهبلات لأمه : من هو هذا الرجل يا مولاتي ؟

قالت : هذا أحد المخلصين لأبيك . ثم قالت لسيار : أيحلف رفاقك مثل هذه اليمين يا سيار ؟

قال : إنها يمين أقسموها أمامي وسيوفهم تلمع في الظلام .

فقالت : إذن قل لحطان ولهؤلاء الأمناء أن الشرق لا يملكه بعد أذينة غير اثنين . زينب ووهبلات ، ثم عادت فاستندت الى ذراع كهيلة وتركت القاعة إلى غرفتها الخاصة يتبعها وهبلات ونساء الشرف ، حيثما تبكي الأرملة زوجها الكبير الذي غدروا به . أجل ، في تلك الغرفة رفعت زينب زوجة أذينة ووهبلات أبنها صوتيهما بالبكاء . . ولم يكن في غرفة الملكة إلاّ كهيلة بنت زبدا . .

***

وفي اليوم الثاني قال سيار لمولاته : إن سيدتي كهيلة هي خادمة الملكة ريثما يرجع حطان إلى تدمر .

قالت : أيخاف أنصارنا أن يغدر بزوجة القتيل أيضاً ؟

قال : ذلك ما أمرني به حطان وهو يستحلفك بدماء البريئين أن تفعلي .

قالت : أما وقد عرفنا أن الغادرين كثيرون في الدولة فسنحتاط للأمر .

قال : عديني يا مولاتي بأنك لا تخرجين من القصر قبل أن تحتفل تدمر بتتويج مولانا الملك . .

فقالت : إن سيدة تدمر التي تخسر تاجها في حمص لا تغادر قصرها قبل أن تستعيد ذلك التاج . . إلاّ إذا كانت هنالك حرب . .

قال : سوف لا تحتاجين يا مولاتي إلى امتشاق السيف .

قالت : ذلك ما نراه لازماً في هذا الوعد الذي نعدك به . . قل ماذا يريد حطان بعد ذلك ؟

قال : وعدني يا مولاتي بأن جلالة الملك وأخوية الأميرين لا يتركون حجراتهم ولو كان أمامهم ألف حامل سيف .

قالت : وعدناك . .

قال : وإن لا تأذني لأحد في الدخول الى القصر لو هاجت المدينة ونشبت فيها الحرب . .

قالت : إذن فحطان يريد أن نكون ملوكاً ولكن أسرى !

قال : نعم يا مولاتي ولكن الى حين . إن حطان الذي هو زعيم القوم الآن يكاد يشك في نفسه . وهو لا يستطيع أن يترك مدينة حمص ليحرس في تدمر باب القصر الذي تقيم فيه الملكة والأمراء .

قالت : وإذا جاءني رسول يحمل أخبار أبي وأخبار الجيش ؟

قال : إن الباب لا يفتح للقائد زباي نفسه قبل أن تقرأي كتابه إذا كان رسولاً .

قالت : قل لحطان أن الملكة توافقه في كل ما أراد . والآن قل لنا متى تزحفون الى قصر معني؟

قال : بعد شهر على الأكثر .

قالت : ذلك كثير يا سيار . .

قال : إن حطان يرى أن ينتظر وصول الجيش إلى حمص .

قالت : إذن فأنتم أضعف من ان تفاجئوا معني في قصره .

قال : لا يا مولاتي ولكن في صفوف الجيش نفسه بعض الخونة كما تعلمين .

قالت : وإذا كان هذا ؟

قال : الساعة التي نذبح فيها معني الظالم . هي تلك الساعة التي يحاكم فيها زبدا رفاق معني ويأمر باعدامهم طعناً بالحراب . وحطان لا يريد من جهة أخرى أن يحدث في الشرق هذا الحدث العظيم وقواد تدمر لا يعلمون شيئاً عنه . .

قالت : لقد أصاب اليهودي فيما رآه . أهذا كل ما أمرك به ؟

قال : أمرني بأن أطبع على يد الملكة قبلة الأحترام . . فمدت يدها المرتجفة وهي تقول : إن الملكة التي تحترمون ستعرف كيف تكافىء المخلصين الذين وقفوا الى جانبها في أيام الضيق . ثم قالت : صافح عني أولئك المخلصين يا سيار .

وقبل أن يترك سيار القاعة ، رأى الدموع تنهمر انهماراً من تينك العينين الكبيرتين الصافيتين . .

***

أرأيت الملكة تبكي يا سيار ؟

قال : لا يلبث الدمع الذي يجول في عينيها حتى يجف يا سيدي حطان . ولكن خيل إلي أني أرى قلبها يضطرب في ذلك الصدر الرحب الذي يعرف أن يصبر على مصائب الزمان .

فقال حطان : لو استطعت أن تقرأ أخلاق هذه المرأة لقام في ذهنك أن الالهة جعلت كل قواها في ذلك الدماغ الكبير والعقل السامي اللذين لم يخلق مثلهما تحت هذه السماء . . وهل وعدتك بما أوصيتك؟

قال : أجل ولكنها ستغادر تدمر أمام جيش تشتريه إذا نحن لم نظفر بمعني .

قال : أما هذا فلا يكون لأن الحق ينتهي دائماً بالظفر وكيف رأيت كهيلة بنت زبدا ؟

قال : لو لم أكن أعرفها من قبل لحسبت أنها رجل يلبس ثوب فتاة . إنها تشبه في ثبات جأشها كبير القواد الذي يرجع إليه الفضل الأكبر في بناء دولة الشرق .

قال : إنها ابنته ولها كبر نفسه . . وماذا قالت عن الحراسة ؟

قال : تركت بيت أبيها لتكون زعيمة نساء الشرف في قصر زينب . ورأيت وهبلات في ذلك القصر يجري عز أبيه في عروقه ثم يظهر في عينيه ، كما رأيت رأسه أهلاً للتاج . .

قال : لو لبس بعل كبير الالهة تاج الدولة لما استطاع أن يخطو في سبيل المجد خطوة واحدة دون أن يكون لزينب رأي في هذا . . إن الملكة التي نحن أنصارها هي الشرق كله . . ولو أنصف هذا الشرق لقدست أسمها أقطاره ومجدت ذكرها على مر الأجيال . . ثم قال لمن حوله من اهل حمص الثائرين : لقد حفظنا حياة الملك وحياة الأمراء الآن وإلاّ لأرسل الخونة واحداً من رجالهم يحمل إليهم الموت في ليلة يسودها السكون والظلام . .

فقال أحد الزعماء : لقد طال غياب الرسل الذين أرسلتهم إلى القواد .

فابتسم الداهية قائلاً : إن هؤلاء الرسل لا يرجعون .

قال : لماذا ؟

قال : لأنهم سيرافقون الجيش في رجوعه ويدلونه على مواقف عينتها لهم حول حمص . .

قال : إذن فالقواد جميعهم أنصار الملكة .

قال : إلاّ زنباع قائد الرماة وبعض ضباطه وضباط الحرس .

قال : وماذا يفعل رسل اسماعيل ؟

قال : إن رجالنا يرون زبدا قبل أن يراه رسل الخائن .

قال : وبعد ذلك ؟

قال : بعد ذلك يعلم القائد الأكبر ماذا يجب أن يفعل .

قال : أخشى أن تفضح الأسرار قبل وصول الجيش .

قال : لا تخشى شيئاً فمعني أضعف من أن يمد إلينا يداً . أفلا ترى أن صدور أهل حمص تضمر البغض لأبن خيران ؟

قال : بلى لكن الحمصيين لا يثبتون في الميدان إذا هو استعان بجميع أنصاره .

فابتسم حطان ابتسامة استخفاف ثم قال : إذا وجد له نصيراً فليفعل . . إن أذينة وهيروديس قتلا ظلماً فمعني سيموت ولو استجار ببعل ، ثم قال لأحد

الزعماء ألم تقل أن حراس قصر الملك سيفتحون لنا الأبواب ساعة نشاء .

فقال : نعم وهم أنصار الدعوة يبغضون معني كما يبغضون اسماعيل .

فتمتم اليهودي قائلاً : الحرس الذين خانوا أذينة هم أنفسهم يخونون ابن أخيه . . ذلك هو الشرف والأخلاص في هذا الزمان . .

في ذلك السهل الذي يمتد في الجنوب الشرقي من أنطاكية ، أجتمع الجيش التدمري ، واعلام النصر تخفق فوق فرق ذلك الجيش . . . وقد محا قواد الشرق من صفحة الوجود ، أولئك الأوباش الذين خرجوا على أذينة وكادوا يزعزعون عرشه ، وكان زبدا أول قائد خيم في السهل . ثم أقبلت القواد بعد أيام يجرون أذيال الفخار ويقصون على القائد الأكبر أخبار ظفرهم بجماعات المتمردين .

غير أن الكآبة كانت تملأ قلب قائد الحرس معن بن حمدان ، وكلما ذكر غياب حطان ورجوعه إلى حمص . ذكر معه ذلك الخطر الذي يحيط بمولاه الملك ويهدد حياته ، ولم يكن يكتم زباي مخاوفه . فكان يقول له : السماء صافية يا بني ولكنك كثير الظنون . . ومع ذلك لم يهدأ له بال . وقد طلق الكرى جفنيه واستسلم الى أفكاره السوداء . . وعندما كان الجيش ، بأذن القائد العام يحتفل بعيد الظفر ، كان الفتى الحمداني في فسطاط زبدا . كئيباً ذاهل الطرف ، تترأى له الجثث مخضبة بالدماء . كما كانت تترای لحطان من قبل ، وكان القواد يقولون : إذا رأى الملك حطان في حمص فالويل له . إنه لا ينجو من غضبه . . ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن أذينة لا يغفر لهيروديس نفسه إذا هو عصاه في امر . . وأخذ القوم يشربون حتى أقبل الليل إلاّ معنا فلم يذق الخمر ، إن ذلك العيد كان خاتمة الحرب التي ركب لها الجيش المصاعب والأخطار . وقد قام على أعظم مظاهر الفرح والاستبشار ، حتى أن زنباع الخائن وأتباعه كانوا يحتفلون بعيد ظفرهم الأخير . .

غير أن الليل اشتد سواده . فإن القوم ما كادوا يستسلمون إلى الكرى حتى وصل إلى ذلك السهل ثلاثة رجال لا يظهر من وجوهم غير العيون وهم يلبسون ما يلبسه صعاليك العرب الفقراء . الذين يتبعون الجند ليشبعوا معدهم الجائعة . . وكان السكون سائداً في تلك الساعة ، حتى أن الثلاثة لم يسمعوا جعجعة جمل أو

صهيل فرس ، ولم يبصروا أمامهم إلى جهة الجنوب غير نار ضعيفة يوقدها حراس الليل . فمشوا يقصدون تلك النار وهم لا يخافون ، فتصدى لهم الحارس السكران قائلاً : مكانكم أيها اللصوص . . قالها ولسانه يتلعثم وصوته يرتجف .

فقال أحدهم : لسنا لصوصاً ولكنا رسل الملك الى القائد العام .

فقال : لقد نام القواد فلا تستطيعون الوصول إلى زبدا الليلة . فاذهبوا الآن وارجعوا غداً .

قال : وإلى أين تريد أن نذهب في هذا الليل ؟

قال : ذلك شأنكم أما أنا فلا أسمح لأحد بالدخول الى المعسكر . .

قال : ندخل بأمر الملك لأن الشأن الذي قدمنا لأجله أعظم مما تظن .

قال : وإذا أبيت ؟

قال : نمكث هنا حتى يطلع الصبح ثم نقول لزبدا أنك منعتنا من الوصول اليه .

قال : وماذا يحدث بعد ذلك ؟

قال : من يعلم فقد يأمر بضرب عنقك . . فصحا الحارس من سكره وجعل يردد قول الرجل ثم قال : اذهب بكم إلى خيمة ابن حمدان . .

قال : قائد الحرس ؟

قال : نعم وهو يرى فيكم رأيه ، فظهر البشر على جبين الرجل وقال : رضينا بما تقول ، فتقدمهم الحارس الى خيمة قائد الحرس حتى إذا داناها رجع وهو يتهادى في مشيه . وإذا بهم أمام حارس آخر قائم بباب الخيمة ، ففاجأه زعيمهم بقول : دلنا على فسطاط القائد العام فنحن رسل الملك. فلم يتردد الرجل في هذا لأنه وثق بصدقهم عندما رأى معهم حارس الليل ، وكان من واجبه أن يقوم بالحراسة من نصف الليل الى الصباح ، دون أن يكون له حق الدخول على مولاه الا إذا دعاه اليه. فلج الرسل في الطلب والرجل لا يلين لهم حتى استفاق زبدا وسمع بعض ما يقولون . . فنادى حارسه من الداخل قائلاً: أدخل يا غلام، فرفع الفتى باب السرداق وقال: أتناديني يا مولاي؟

قال : أجل فمن هو الذي يحدثك ؟

قال : ثلاثة رجال حجبوا وجوههم لا يبين منها إلاّ العيون . .

قال : ماذا يريدون ؟

قال : يريدون الدخول على مولاناالقائد في هذه الساعة وهم يزعمون أنهم قدموا بأمر الملك ، والعربي مثل زبدا ، لا ينام في أيام الحرب إلاّ والسيف إلى جانبه فتناول سيفه وهو في فراشه وقال له : لقد أذنا لهم في الدخول . فدخل الثلاثة وبراقعهم في أيديهم وانحنوا مسلمين ، وفي السرداق سراج يبعث النور الضعيف الرجراج ، فقال زبدا ويده على سيفه : قولوا من أنتم .

فقال الزعيم بلهجة هادئة : نحن من حمص . .

قال : ومن أرسلكم الينا ؟

قال : مر حارس الخيمة بأن يترك الحراسة الآن وستعرف كل شيء . .

فاستغرب زبدا لهجته وقال اتريدون أبعاد الحارس ليخلو لكم الجو؟ .

قال : نعم يا مولانا فالسر الذي نحمله لا نبوح به على مسمع من الحراس .

قال : أأنتم رسل الملك ؟

فرفع الرجل صوته قائلاً : أنا رسل الملك أذينة اليك ثم خفضه وقال : أبعد الحارس أيها القائد فنحن مكرهون على ترك المعسكر قبل أن يطلع الصبح .

فاستوي القائد في فراشه وهو ينظر إلى السيف ، دعا حارسه وقال له : انصرف يا سعد فلا حاجة لنا اليك . وكان الحارس يصارع النعاس فقال : أتأذن لي في النوم يا مولاي ؟

قال : أجل فلقد أكثرت الليلة من شرب الخمر . . فاذهب . . ثم التفت الى الرجال قائلاً : لقد انصرف الغلام فماذا يريد الملك . . وزبدا لا يصدق أنهم رسل أذينة . . فقال الحمصي : لسنا رسل الملك يا مولانا بل رسل حطان . . !

فقال : حطان ؟ . . وأين هو اليوم ؟

قال : في حمص .

قال : أيعصي أمر الملك ويجسر على المثول بين يديه ؟

فتساقطت دموع الرجل وقال : إن المسكين حطان لم ير الملك . .

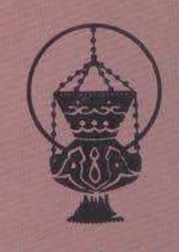
قال : لماذا ؟

فاختنق صوته قائلاً : لأنه عند وصوله كان الملك قد ترك مدينة حمص إلى الأبد . . فقفـز زبـدا من فراشـه وهـو يردد كلام الرجـل ، إلى الأبـد ! . إلى الأبد ! .

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

سعر الجزأين

